الفصل الرابع

طوائف من الشعر

١

شعراء الغزل

يكثر شعر الحب في الأدب العربي منذ الجاهلية إلى اليوم كثرة مفرطة، وحتى في إغراض الشعر الأخرى مديحا وغير مديح يقدم الشعراء لقصائدهم فيها أبيات من الغزل أو النسيب جذبا للأسماع، ولذلك لا نغلو إذا قلنا أن النسيب والغزل والحب يكاد يكون الغرض الأساسي للشعر العربي، وهو أمر طبيعي لأنه يتناول عاطفة الحب الإنساني الخالدة بجميع أحاسيسها ومشاعرها وانفعالاتها وانعكاساتها على حياة الشاعر المحب أو العاشق منذ تستهويه امرأة، فيقع فريسة لحبها، وتملأ قلبه وجداً وشوقا إلى رؤيتها، وقد تعرف منه هذا الحب فتلقاه أو تنظر إليه نظرة أو تومئ إليه إيماءة فيزداد ولعاها وغراما، وقد تتدلل عليه وتمتنع وقد تنأى عنه وتهجره فتضطرم بين جوانحه نار شوق لا تخمد، وعبثا يتذلل لها ويستعطف ويتضرّع، ومع ذلك لا يذوى الأمل في نفسه بلقائها أبدا، فهو دائما مؤمل في اللقاء بعد الهجران وعلى الأقل في الرؤية بعد الحرمان. وبلغ الحب ببعض الشعراء قديما حد الجنون، واسم قيس مجنون ليلي يشيع على كل لسان، قد ظل يغني باسمها وعيناه مصوبتان إلى خيالها، فهو لا يرى في ليله ولا في نهاره سواها، إذ تشغل من حوله كل وقت وكل مكان وهو يسبح في البوادي معاشراً آرامها، إذ هجر حيّها، بل هجر عالم الإنسان، إنه لا يعرف سوى عالمها، فهو العالم الفسيح الذي لا يزال بصره فيه شاخصا إليها. أما عالم قومه أو بعبارة أخرى عالم الإنسان فما أضيق ساحاته، وإنه ليفر منه منطويا على نفسه حالما بليلي وعالمها الساحر خالعا الوهم على الحقيقة ذاهلا عن كل ما حوله ذهول المجانين،ولذلك سماه القدماء مجنون ليلى. وقلة فقط هم الذين بلغ بهم الحب هذا المبلغ المغرق في الخيال، ومع ذلك فكل محب يشعر كأن صاحبته فوق مستوى كل من حولها من الفتيات والنساء، وكأنما تحيط بها هالة سحرية،وبذلك تستحيل في خيال الشاعر المحب لها أو

العاشق إلى كائن شعري ساحر. وقد يفيق المحب من حبه وسحره، وقد يظل رهينا به لا ينفك عنه أبدا ولا يفيق بتاتا.

ونستطيع أن نلاحظ ذلك على شاعر شامي من شعراء العصر العباسي الأول هو ديك الجن الحمصي، فقد ظل يتغنى بمحبوته " ورد" طوال حياته حتى بعد أن وسوس له شيطان الغيرة الحمقاء أن يحرقها ظلما وبهتانا، فقد ظل يبكيها بكاء قلب مزقه الندم والألم. وظل البحتري مثله يتغزل بصاحبته " علوة الحلبية" حتى شيخوخته على نح ما صرونا ذلك في كتابنا " العصر العباسي الثاني ". ومن المؤكد أن شعراء الغزل العربي- على مر الأزمنة- أتاحوا بحبهم وأشعارهم لغير امرأة أن تنال حظا من الشهرة قليلا أو كثيرا. ولولا ديك الجن ما اشتهرت "ورد "ولا عرفها أحد ولولا البحتري ما اشتهرت علوة ولا حفل بها أحد، وقد ظلت دارها قائمة معروفة بحلب حتى زمن ياقوت صاحب معجم البلدان في القرن السابع الهجري. على أن بين الشعراء من لم يقتصر في غزله على واحدة بعينها فتغزل بكثيرات وقليل منهم من نشعر عنده بلوعة حقيقية. ومنذ الجاهلية يتنوع الغزل، ففيه العفيف النقي الذي أضاف إليه الإسلام بمثاليته عفة على عفة وطهرا على طهر، والشاعر المحب يصور فيه وجده وهيامه وكلفه بصاحبته كلفا شديدا وعذابه في هذا الكلف عذابا متصلا. وفي الغزل بجانب ذلك الغزل الحسي الذي يصور جمال المرأة ومفاتنها تصوير ماديا تطغى فيه الغرائز وتجمع العواطف. وظل هذان النوعان: الملائكي الطاهر والمادي الصريح يتقابلان في الغزل العربي طوال الحقب الماضية. والحديث عن الغزل وشعر الحب عند شعرائنا يطول فلندع ذلك إلى أمثلة مختلفة من غزل هذا العصر بديار الشام، وأول ما نشوق من ذلك قول كشاجم في صاحبه له [1]:

السحر في ألحاظها الفاتكة والروح من إعراضها هالكة
والقهوة الصهباء من ريقها والمسك من اصداغها الحالكة
من لم ير الدر وتأليفه في سلكه فليرها ضاحكة
قد كتب الحسنُ على خدها طل دم أنتِ له سافكه

(١) ديوان كشاجم (طبع المطبعة الأنسية ببيروت) ص ١٣٩.

والأبيات تخلو من العاطفة المشبوبة، إذ ليس فيها حرارة، إنما فيها تشبيهات واستعارات محفوظة، فريق صاحبته خمر والشعر على أصداغها وأسنانها درّ، وربما كانت الصورة في البيت الأخير بديعة، إذ تخيل كأن حمرة خديها الساطعة دم سفكته، وهي مبالغة في الخيال والتصور. ولأبي فراس الحمداني أبيات فيها غير قليل من نشوة الحب وحرارته، وإذ يقول [١]:

سكرتُ من لحظة لا من مدامته ومال بالنوم عن عيني تمايله

وما السلافُ دهتني بل سوالفه ولا الشمول ازدهتني بل شمائله

ألوي بلبي أصداغ لوين له وغال قلبي ما تحوي غلائله

وهو يقول إنه انتشى من لحظ صاحبته وعينيها الفاتنتين لا من الخمر الحقيقية، ويقول ليست السلافة أو الخمر هي التي دهته بل صفحتا جيدها البديع، وكذلك ليست الخمر أو الشمول هي التي استخفّته بل خصالها الحلوة وما أروع أصداغ شعرها المنسدلة على خديها فقد ألوت وذهبت بلبه، وما أجمل كل ما تشتمل عليه غلائلها وثيابها مما سرق منه قلبه. وله مقطوعة وصف فيها ليلة من ليالي حبه على طريقة عمر بن أبي ربيعة [٢]، إذ يقول إنهما ظلا يقتطفان زهرات الحب إلى أن بدا ضوء الصباح فتفرّقا. ولابن زمرك موشحات وأشعار على هذا الغرار، يحاكي فيها أبا فراس وابن أبي ربيعة، وظن بعض المستشرقين أنها من تجديداته، وهي قديمة في الشعر العربي. ولابن سنان الخفاجي [٣]:

أترى طيفكم لما سرى أخذ النوم وأعطى السهرا

أم ذهلنا وتمادى ليلنا فتوهمنا العشاء السحرا

يا عيونا بالحمى راقدة حرم الله عليكن الكرى

سل فروع البان عن قلبي فقد وهم البارقُ فيما ذكرا

---

(١) ديون أبي فراس الحمداني ٣٠٢/٢.

(٢) ديوان أبي فراس ٣٩/٢

(٣)ديوان ابن سنان الخفاجي (طبع المطبعة الأنسية) ص ٣٩.

وليس في الأبيات لهفة ولا لوعة، ودعاؤه على صاحبته أو صواحبه- في البيت الثالث- أن لا يذقن النوم دعاء ناب على ذوق المحبين. ولم يكن من أصحاب الحب. وإنما هي أبيات في الغزل أو النسيب كان يقدم بها لقصائده حكاية واقتداء بالشعراء قبله. ولابن الخياط أشعار غزلية كثيرة يقدم بها لمدائحه نحس فيها لوعة المحب وحرقة فؤاده من مثل قوله [١]:

خُذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوقُ ومن يعلق به الحب يُصبه

غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه

إذا خطرت من جانب الرمل نفحة تضمن منها داءه دون صحبه

أغار إذا آنستُ في الحي أنة حذاراً وخوفاً أن تكون لحبه

فحب صاحبته النجدية استأثر بقلبه حتى ليطلب له الأمان من صبا نجد مخافة عليه أن يطير شعاعا، وإنه ليذكرها ليل نهار وتُصبيه، وبيأس لهجرانها ولأسنة أهلها وسيوفهم كما يقول في القصيدة. ويظل يرجو لقاءها وإنه ليتنسم في الصبا المقبلة من ديارها نفحة من عطرها تحمل له نفس الداء، داء الحب وعذابه. ويبالغ في وصف غيرته عليها، حتى ليخشى أن تكون كل أنة يسمعها في الحي من محب لها محموم بحبها ودائه العضال. ولمعاصرة الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ للهجرة[٢]:

إشارة منك تغنيني وأحسنُ ما رُد السلام غداة البين بالعنم [٣]

حتى إذا طاح عنها المرط من دهش وانحل بالضم سلكُ العقد في الظلم [٤]

تبسمت فأضاء الليلُ فالتقطتْ حبات منتثر في ضوء منتظم

وهو تكفيه الإيماءة من بعيد والإشارة بالبنان الجميل الأحمر حمرة زهر العنم، ويقول إنه سقط عنها المرط أو الإزار وانحل سلك العقد الملتف حول جيدها، وتبسمت

---

(١) ديوان ابن الخياط ص ١٧٠.

(٢) ابن خلكان ٥٩/١

(٣) العنم: نبات أزهار قرمزية

(٤) المرط: كساء من حرير أو صوف تتلفع به المرأة

فأضاء ظلام الليل وأخذت تلتقط حبات العقد المتناثرة في ضوء اللؤلؤ المنتظم في ثغرها البرّاق الفاتن.

ودخل القيسراني مدينة أنطاكية في أثناء حكم الصليبيين لها سنة ٥٤٠ لحاجة عرضت له، وكان في الثانية والستين من عمره، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات، أشهرهن مغنية تسمى ماريا، خلبت لبه، وله فيها غزليات كثيرة، ومن بديع غزله قوله [١]:

عفائف إلا عن معاقرة الهوى ضعائف إلا في مغالبة الصب
ولما دنا التوديع قلت لصاحبي حنانيك سر بي عن ملاحظة السرب
تقضي زماني بين بينٍ وهجرة فحتام لا يصحو فؤادي من حب
وأهوى الذي يهوى له البدر ساجدًا ألست ترى في وجهه أثر الترب

والصورة في البيت الأخير رائعة فقد جعل كلفه البدر من أثر الترب العالق بجبهته لتوالي سجوده لصاحبته ولجمالها الساحر. ويقول إن زمانه تقضّى في حرمان متلاحق من البعاد والهجرة المتصلة. ولحماد الخراط المتوفى سنة ٥٦٥ قوله [٢]:

ألا هل لماضي العيش عندك مرجع وهل فيه بعد اليأس للصب مطمع
لقد أولعت بالصدّ عني وإنني لفرقتها، ما عشتُ، بالوجد مولع
أضاحكُ حُسادي فيغلبني البكا وأكتم عوادي وإني لموجع
إذا خطرتْ من ذكرها لي خطرة تكاد لها أنباط قلبي تقطع

وهو يائس من اللقاء ومع ذلك لا يزال حبل الرجاء ممدودا، مع لوعها بالصد عنه والإعراض ومع تعلقه بها ووجده وجدا ملتاعا. وبضاحك حساده تمويها ويغلبه البكاء ويكاتم زواره وهو موجع القلب والحشا، حتى إذا ذكر اسمها عفوا أحس كأن نياط فؤاده

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١/١٢٤.
(٢) الخريدة ٢/١٣٧

وعلائقه تتقطع تحسرا ولوعة. وقد أنشد له العماد غزلا كثيراً. ويشكو ابن النقار كاتب الإنشاء الدمشقي المتوفى سنة ٥٩٢ شكوى مرة من صاحبته قائلاً [١]:

من منصفي من ظالم متعنت يزداد ظلما كلما حكمته

ملكته روحي ليحفظ ملكه فأضاعني وأضاع ما ملكته

وهي تظلمه ولا ترحمه ولا تعطف عليه أي ضعف، وويل له لقد ملكها روحه لتحفظها وتصونها وتقوم بحقوقها فإذا هي تضيعها وتضيع صاحبها إذ أصبح خواء بلا روح، فما أشقاه: ويقول فتيان الشاغوري متغزلاً [٢].

ومهفهفٍ بلغ المنى بصفاتهِ حركاتُ غصن البان من حركاته

والشمس تخجل من ضياء جبينه فكأن يوسف حاز بعض صفاته

أضحي الجمال بأسره في أسره فكأن يوسف حاز بعض صفاته

لا تطمعن يا عاذلي في سلوتي عنه فما أسلوه، ولا وحياته

وهو يصور صاحبته مهفهفة أو بعبارة أخرى ضامرة دقيقة الخصر بلغت كل ما تتمناه المرأة من حسن وجمال، ويقول إن غصن البان الذي يميد ملاحة حركته مشتقة من حركاتها، ويجعل الشمس تصفر خجلا من ضياء جبينها، بينما يغار الجلنار أو بعبارة أخرى ورد الرمان وزهرة الأحمر من وجناتها المشربة بالحمرة القانية، ويجعلها تحوز الجمال بأسره، حتى لكأن يوسف عليه السلام إنما حاز منه أطرافا! ويتوجه إلى عاذله باللوم، فلن يكف عن حبه ولن يسلو صاحبته أبداً.

ويقول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ للهجرة [٣]:

وتنبهت ذات الجناح بسحرةٍ بالواديين فنبهت أشواقي

ورفاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق [٤]

---

(١) الخريدة ٣١٥/١.

(٢) الديوان ص ٦٤.

(٣) الخزانة ص ٣٢٦

(٤) يعقوب هو النبي يعقوب وبكاؤه على ابنه يوسف حتى ابيضت عينه من الحزن معروف.. وإسحاق هو إسحاق الموصلي أشهر المغنين الملحنين في العصر العباسي.

أني تُباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآقي

وأنا الذي أملي الجوى من خاطري وهي التي تُملى من الأوراق

وهو يقارن بين جواه وحبه وأساه ودموعه وبين جوي الحمامة الورقاء وصبابتها لأليفها وحزنها الدفين، ويقول إنه يملي من خاطره حرقته ولوعته، بينما هي تملى من أوراق الشجر وتروى عنه ذلك الوجد. ويقول المحّار الحلبي المتوفى سنة ٧١١ للهجرة [١]:

ما بث شكواه لولا مسه الألم ولا تأوه لولا شفه السقم

ولا توهم أن الدمع مُهجته أذابها الشوق حتى سال وهو دم

يُبدى التجلد والأجفان تفضحه كالبرق تبكى الغوادي وهو يبتسم

يمسي ويصبح لا صبر ولا جلد ولا قرار ولا طيف ولا حلم

والمحار يقول إنه لم يَشْكُ إلا بعد أن برح به الأمل ولا أن إلا بعد أن شفه السقم وما كان ليتوهم أن نار الهوى أذبت مهجته حتى سال الدمع دمًا قانيا. وأمسى ويصبح وقد عزه الصبر والتجلد وتملكه قلق لا حدّ له، وضاع منه كل شئ حتى الطيف في المنام، وحتى الأحلام إذ لا يزال مسهداً لا ينام.

ونمضي إلى زمن العثمانيين ونجد الغزل وشعر الحلب على كل لسان من مثل قول فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ للهجرة [٢]:

طرقت طروق الطيف وهنا ميالةُ الأعطاف حُسنا

مصقولة الخدين مثل السيف ألحاظاً ومتنا

في حلة من جنس ما يكسو الربيع الغصن دكنا

الدل ينبت من مساحب ذيلها والحُسن يجني

لو خاطبت وثنا لحـ ـن مع الجمود لها وأنا

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٢١.

(٢) نفحة الريحانة (طبعة الحلبي) ٢/٥٢٧

وليس في القطعة لوعة، بل هو يصف جمال صاحبته ودلها وحسنها، ويقول: لو خاطبت وثنا من الأحجار لحنّ لها وأن انينا لا ينقطع. ولم يكن فتح الله بن النحاس من شعراء الحب والوجد مثل محمد الحشري المتوفى سنة ١٠٩٢ للهجرة القائل:

من عذيري في حب طفل لعوب	عودوه سفك الدماء فحلا له
كلما صد عن سواي دلالاً	صد عني تبرماً وملاله
لست أنسى يوم الفراق وقد أدرك	من شملنا النوى آماله
غصب البنُ من يدي كل قد	سرق الغُصن لينه واعتداله
مر نشوان من جوى يتثنى	ثقل الورد غصنه فاماله

والقطعة تزخر بتصاوير بديعة، تصور خصب الخيال عند الحشري، فقد عودوا صاحبته الطفلة الناعمة الرقيقة سفك الدماء فحلالها أن تديم هذا السفك. ويزعم أن الغصن سرق لينه واعتداله من قد صاحبته وقوامها اللين الممشوق وينفذ إلى صورة طريفة، فصاحبته تتثنى لثقل الورد المتوهج على خدودها الفائقة. وحري بنا أن نترجم في إجمال لبعض الشعراء العصر الغزلين.

عبد[١] المحسن الصوري

هو عبد المحسن بن محمد الصوري، أحد الشعراء المجيدين المبدعين، وفيه يقول الثعالبي: "أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء، وشعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام، مليح النظام، من محاسن أهل الشام" ويقول ابن خلكان: "له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان. توفى سنة ٤١٩ وعمره ثمانون سنة أو أكثر"، وكان ابن حيوس الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة مُغرى بشعره، وكان يفضله على أبي تمام والبحتري والمتنبي، ويُروى أنه مرّ في طريقه إلى حلب بشاعر المعرّة بال الشام بل العالم العربي لزمنه: أبي العلاء، وجرى بينهما حدث في الشعر والشعراء وعاب أبو العلاء عبد المحسن الصوري بقصر أشعراه وأنه لا ينظم في الغالب إلا مقطّعات فقال له ابن حيوس: هو أشعر من طويلك يقصد المتنبي، فمدّ إليه أبو العلاء يده وقبض

---

(١) انظر في ترجمة عبد المحسن الصوري وأشعاره، اليتيمة ٢٩٦/١ وتتمة اليتيمة ص ٣٥ وابن خلكان ٢٣٢/٣ وعبر الذهبي ١٣١/٣ و النجوم الزاهرة ٢٦٩/٤ ومرآة الجنان ٣٤/٣ والشذرات ٢١١/٣ وديوانه مفقود.

علـى أعلـى ثوبـه قـائلاً: الأمـراء لا ينـاظرون، يعنـي أنـه لا يقـارن بـالمتنبي. وكـان أبـو العـلاء معجبـا بـالمتنبي إعجابـاً شـديداً حتـى سـمى شـرحه لديوانـه باسـم معجـز أحمـد. علـى أن قصـر أشـعار عبـد المحسـن الصـوري لا يـدفع أنـه مجيـد فـي قصـاره إجـادة رائعـة. وهـو فيها يقترب في فنه من أبي تمام في دقائق تصاويره وأخيلته.

ولعـل ذلـك مـا جعـل ابـن خفاجـة الأندلسـي يعجـب بأشـعاره حتـى ليقرنـه فـي مقدمـة ديوانـه بالشـريف الرضـى ومهيـار قـائلاً: إنـه تملّكتـه فـي شـبابه محاسـن أشـعارهم الرائعـة الرائقـة، وألفـاظهم الشـفافة الشـائقة. ويتوقـف مـرارا فـي ديوانـه ليـدلنا علـى أن عبـد المحسـن الصـوري ألهمـه هـذه المقطوعـة أو القصـيدة أو تلـك، وهـو فيهـا جميعـا يتغـزل غـزلا رقيقـا ممتزجـا بالطبيعـة وجمالهـا الهـاجع فـي الكـون، وكأنـه يضـع أيـدينا علـى خصـائص عبـد المحسـن فـي غزلـه، فهـو فيـه يمـزج بـين المحبـوب وعناصـر الطبيعـة مزجـا فيـه كثيـر مـن الطرافة في التصوير كقوله:

بالذي ألهم تعذيـ	ـبي ثناياك العذابا
والذي ألبس خديك	من الورد نقابا
والذي صير حظي	منك هجرا واجتنابا
يا غزالا صاد باللحظ	فؤادي فاصابا
ما الذي قالته عينا	ك لقلبي فأجابا

فهـو يصـل بـين رُضـاب الثنايـا فـي ثغـر صـاحبته وبـين الميـاة العذبـة الحلـوة، ويجعـل الحمـرة علـى وجنتيهـا وردا تنتقـب بـه. وهـو بعـد فـي التصـوير. ويجعلهـا غـزالا مـن نـوع غريـب، فهـي غـزال لا يُصـاد، بـل يصـيد بشـباك لحظـة، وإنـه ليخلـب القلـوب فتلبيـه طائعـة مستجيبة.

وقـد اسـتلهم ابـن خفاجـه هـذا الجانـب فـي غـزل عبـد المحسـن الصـوري واستضـاء بـه، كمـا استضـاء واسـتلهم فـي أشـعار أخـرى لـه جانبـا ثانيـا فـي غـزل عبـد المحسـن، ونقصـد جانب الرقة والدماثة والنعومة على نحو ما نجد في قوله:

أترى بثأر أم بدين	علقتْ محاسنها بعيني

في لحظها وقوامها ما في المهند والرديني

وبوجهها ماء الشباب خليط نار الوجنتين

بكرت عليّ وقالت أخ تر خصلة من خصلتين

إما الصدود أو الفراق فليس عندي غير ذين

فأجبتها ومدامعي منهلة كالمرزمين [١]

لا تفعلي إن حان صدك أو فراقك حان حيني

وكأنما قلتُ اذهبي فمضت مسارعة لبيني

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، مما يجعلها تطير من الفم بخفة طيرانا لرشاقتها ونعومتها، والألفاظ مختارة اختيارا دقيقا، وبالمثل موسيقاها الخفيفة المقتطفة من وزن الكامل المجزوء. وكان يعرف كيف يختار موسيقاه ولحونها وأنغامها، وكيف يختار لها الألفاظ التي تمكن لها بحلاوتها وعذوبتها في الآذان، بل في القلوب وألافئدة. ويقول في صُدغ شعر مرسل بين أذن صاحبته ووجنتيها وقد توقف مائلا منحنيا:

جنى ما جنى وانصرف وأنكر ثم اعترف

سلوا صدغة لم جرى ولما جرى لم وقف

وكان على أنه يجوز المدى فانعطف

وهو تصوير بديع لهذا الصدغ وانعطافه ذات اليمين أو ذات اليسار دون استرساله، وكأنه لجماله وحسنه كان ينتظر أن لا ينعطف، وقد بث فيه حركة طريفة فهو يجري ثم يقف، وهو يسترسل ثم ينعطف. وكان الشعراء يغارون على صواحبهم، ويذكرون ذلك في أشعارهم، أما عبد المحسن فيقول:

تعلقته سكران من خمرة الصبا به غفلة عن لوعتتي ولهيبي

وشاركني في حبة كل أغيد يشاركني في مهجتي بنصيب

فلا تلزموني غيرة ما عرفتها فإن حبيب من أحب حبيبي

---

(١) المرزمان: نوءان شديدا المطر.

وهـو فـي ذلـك رقيـق منتهـى الرقـة، فهـو لا يغـار ممـن يحـب حبيبتـه ولا يكرهـه أو يمقته، بل أعجب العجب أنه يحبه، وهي مبالغة مفرطة في الرقه ورهافة الشعور.

ابن[١] منير

هو أحمد بن منير الطربلسي، ولد في طرابلس سنة ٤٧٣ لأب كان ينشد الأشعار ويغني في أسواقها، وأخذ ابنه في نشأته بالتعليم فحفظ مثل لداته القرآن الكريم، وتعلم اللغة والأدب وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وقدم دمشق وسكنها. ويقول العماد الأصبهاني كان شيعيا غاليا، ويقول ابن خلكان: "كان رافضيا". وكان هجاء خبيث اللسان، وكثر هجاؤه فسجنه بوري بن طغتكين صاحب دمشق (٥٢٢- ٥٢٥ هـ). وعزم على قطع لسانه، وشفع فيه الحاجب يوسف بن فيروز، فأطلقه بوري على أن يغادر دمشق، ورجع إليها بعد وفاته. غير أن حكامها بعد بوري ظلوا ينفونه مرارا، مما جعله ينزل في بلدان شامية متعددة وخاصة حجماة وشيزر ومدح كثيرين من حكام البلدان الشامية وخاصة أمراء شيزر، وكان في أثناء مقامة بتلك المدينة يتردد على حلب. وتغنى طويلا بانتصارات عماد الدين زنكي على الصليبيين في بادين وغيرها من ساحات الحرب في الشام. وجلجل بصوته حين فتح مدينة الرُها وأزال منها إلى غير رجعة إحدى الممالك التي أسّسها حملة الصليب. وأقام بان منير حينئذ بحلب، ونشأت بينه وبين ابن القيسراني- بسبب المنافسة- معركة هجاء حامية الوطيس. وتوثقت العلاقة بينه وبين نور الدين بعد وفاة أبيه زنكي، وأشاد ببطولته وانتصاراته على حملة الصليب، وكان يصحبه في غزواته، واتخذه نور الدين سفيرا إلى حاكم دمشق في بعض المهام، ولم يلبث أن توفي بحلب سنة ٥٤٨.

وتناول ابن منير في شعره أغراضا مختلفة في مقدمتها المديح، ومرّ بنا- في غير هذا الموضع حديث عن مديحه لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين في انتصاراتهما الرائعة على حملة الصليب، ويُشيد العماد الأصبهاني بشعره وروعته. وكان يكني أبا الحسن ويلقّب المذهب وقال في وصف شعره أحد معاصريه: شعره ككنيته حسنٌ ونظمه كلقبه مهذبٌ، أرق من الماء الزلال، وأدق من السحر الحلال، وأطيب من نيل الأمنية، وأعذب من الأمان من المنية. وله هجاء كثير. وكان يجيد الغزل وشعر الحب إلى أبعد حد، وفي رأينا أن مرجع ذلك إلى حزن تنطوي عليه نفوس الشيعة جميعا منذ مقتل

---

(١) انظر في ابن منير وشعره الخريدة (قسم الشام) ٧٦/١ وابن خلكان ١٥٦/١ وابن القلانسي ٣٢٢ و النجوم الزاهرة ٢٩٩/٥ وشذرات الذهب ١٦٤/٤.

الحسين، وهو حزن صفّي مشاعره ورقق أحاسيسه وملأه بوجد متقد لا تخمد ناره، ومن رائع غزله قوله:

من ركب البدر في صدر الرديني ... وموه السحر في حد اليماني

وأنزل النير الأعلى إلى فلك ... مداراه في الكساء الخسرواني

طرف رنا أم قراب سل صارمه ... وأغيد ماس أم أعطاف خطى

أذلني بعد عز والهوى أبدا ... يستعبد الليث للظبي الكناسي [١]

أما وذائب مسك في ذوائبه ... على أعالى القضيب الخيزرانيّ

وما يُجن عقيقي الشفاه من الـ ... ريق الرحيقي والثغر الجمانيّ

أربى عليّ بشتى من محاسنه ... تألفتْ بين مسموعٍ ومرئيّ

والصور في الأبيات طريفة غاية الطرافة، فهو يتعجب من بدر يراه في صدر رمح رديين مهيئ لإصابة المحب في الصميم، وإنه ليعجب أن يكون سحر العينين ممّوها في حد السيف الماني وأن يرى القمر أمام عينيه يدور على الأرض في كساء فارسي حرير. ويعجب هل العين طرف يديم النظر أو غمد سُل سيفه القاطع، وهل هو بإزاء قد شائق ناعم يتثنى أو بإزاء أعطاف رمح خطي قاتل، ويقول إن الهوى يستعبد الليث الفاتك للظبي الوادي الذي يعيش في كناسه أو مأواه الآمن، ويرى ذوائب الشعر على أعالي هذا الغصن الخيزراني الأملس الناعم تقطر ذوب المسك، أما الشفاه فوراءها الثغر الفضي من الأسنان والريق الرحيقي السائغ. وهي صور تدل على خصب الخيال عند ابن منير وقدرته على عرض الصورة الشعرية عرضا طريفا. ويقول:

أترى يثنيه عن قسوتِه ... خده الذائب من رقته

أفأستنجده وهو الذي ... لون الدمع على صبغته

ولهذا قوسته مُورتة ... تستمد النبل من مقلته

فمر لا فخر للبدر سوى ... أنه صِيغ على صورته

صُدغة كرمة خمر قسمت ... بين خديه إلى نكهته

---

(١) الكِناس: مأوى للظبي في الشجر يستتر به.

أتخال الخال يعلو خده نقط مسكٍ ذاتب من طرته

ذاك قلبي سُلبت حبته واستوت خالا على وجنتيه

والقطعة تموج بالصور، فخدّ صاحبته يذوب رقة، وقد لون دموعه بلونه الأحمر القاني، وإن قوس حاجبها لمشدود والنبل في مقلتها يستمده. وقد بلغت م الجمال وسحره مبلغا عظيما حتى لفخر البدر بأنه صيغ على صورتها، وكأن صديغها أو خصلتي الشعر المرسلتين على خديها كرمة خمر قسمت بينهما واستحالت رضابا في ثغرها يرشفه المحب. ويقول: لا تظن الخال على خدّها نقطة مسك سقطت من طرة شعرها، بل هو حبة فؤاده سلبتها من قلبه وأتاحتها لوجنتها الفاتنة. وتكثر مثل هذه الصور البديعة في شعره وعزله، من ذلك قوله:

وتوقدت في الروض من وجناته نار الحياء يشبها ماء الصبا [١]

وقوله:

وكم له في كبدي لسعة برودها الدرياقُ من فيهِ [٢]

وقوله:

سلمت فازورّ يزوى قوس حاجبهِ كأنني كأس خمرٍ وهو مخورُ

وقوله:

قمّر ما طلعتْ طلعته قط إلا سجد البدر لها

وغزلياته تتردد بين الجزالة والنصاعة في الألفاظ وبين الرشاقة والعذوبة، وله قصيدة رائية من مجزوء الكامل في مملوكه " تتر" أنشدها الحموي في خزانته تدل على خفة روحه وميله إلى الدعابة، وبحق كان شاعرا بارعا من شعراء زمنه.

---

(١) يشبها: يوقدها

(٢) برودها: شرابها. الدرياق: الترياق الشافي.

الشاب[١] الظريف

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني، نشأ أبوه في دمشق، وخدم الدولة في عهده جهات، وعلم كاتبا وشيخا للصوفية وانتظم في سلكهم، ووفد على القاهرة ونزل بها في خانقاه الصوفية الكبيرة المعروفة باسم " سعيد السعداء" ووُلد له حينئذ ابنه شمس الدين سنة ٦٦١. وعنى بتربيته وبدأ بحفظ القرآن الكريم، حتى إذا أتمه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ، وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة، وأخذ ينظم مدائح وغير مدائح، غير أن أباه رأى أن يعود إلى دمشق وعاد معه وظل يذكر صباه بمصر في مثل قوله:

يا ساكني مصر شمل الشوق مجتمع بعد الفراق وشملُ الشكر أجزاء

والتحق أبوه بالدواوين في دمشق، وولى هو عمالة الخزانة بها، وعاش مكفوف الرزق، وأفضى مع أنداده من شباب دمشق إلى حياة فيها غير قليل من اللهو يجتمعون في دورهم أو في المتنزهات، غير أنه لم يعش طويلا، إذ عاجلته المنية في الثامنة والعشرين من عمره سنة ٦٨٨.

وقد تناول الشاب الظريف في عشره أغراضا مختلفة من المديح وغير المديح،وأهم غرض أبدع فيه واشتهر به بين معاصريه ومن جاءوا بعدهم الغزل، لسبب طبيعي وهو أنه طالما تردد على سمعه شعر أبيه الصوفي وغيره من أشعار ابن الفارض وابن عربي، وكأنما تمثل ما في أشعارهم جميعا من وجد قوي حار، وبثّ منه الكثير في غزله، مصورا ما يثير الحب في القلوب من المشاعر والعواطف والأهواء، عارضا ذلك في لغة عذبة سهلة تلذ الألسنة والآذان وألافئدة. وفيه وفي شعره ورقته ينقل ابن شاكر عن ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار قوله عنه وعن شعره:

"نسيم سري، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخف موقعا منه في الكرى، لم يأت إلا بما خف على القلوب، وبرئ من العيوب، رق شعره فكاد أن يُشرب، ودق فلا غرو للقُضب (الأغصان) أن ترقص والحمام أن يطرب، ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان، وولج

---

(١) انظر في الشاب الظريف وأشعاره، فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٢/٢ و النجوم الزاهرة ٣٨١/٧ وتاريخ ابن الفرات ٨٥/٨ والخزانة لابن حجة الحموي ص ٢٥١ وما بعدها وديوانه مطبوع بالمطبعة الأهلية ببيروت.

القلوب ولم يقرع باب الآذان.. وأكثر شعره بل كله رشيق الألفاظ، سهل على الحفّاظ، لا يخلو من الألفاظ العذبة، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر".

وهي شهادة قيمة لابن الفضل الله في الشاب الظريف وشعره غزلا وغير غزل، إذ يموج شعره بالرقة وحسن الجرس وجمال التناسق، مع خفة الروح، وكأنما حمل في صباه منها غير قليل من أهل القاهرة الذين عاشرهم في نشأته ومطالع حياته، ومن طريق غزله قوله:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنا عُشاق

فعسى يُعينك من شكوت له الهوى في حمله فالعاشقون رفاق

لا تجزعن فلست أول مُغرم فتكتْ به الوجنات والأحداق

واصبر على هجر الحبيب فربما عاد الوصالُ وللهوى أخلاق

يا رب قد بعد الذين أحبهم عني وقد ألف الفراق فراقُ

والأبيات تسيل رقة وعذوبة، وهي تلتصق بالنفس لا لما قاله ابن فضل الله العمري أن الشاب الظريف كن يستخدم الكلمات العامية، فليس فهيا من العامية شئ، وربما كان أدق من ذلك أن نقول إنه كان يستخدم أساليب وألفاظا أشبه بألفاظ وأساليب اللغة اليومية المتداولة على ألسنة العامة مع أنها عربية فصيحة، مما يُشيع الاستواء في عباراته وانسجامها انسجام الماء العذب في تحدره ورقته وانطلاقه دون أي عائق لفظي، بل مع العذوبة والحلاوة والرشاقة، على شاكلة قوله:

أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون

وضاعف بالفتور لها اقتداراً وإن تك أضعفتْ عقي وديني

وأبقى دولة الأعطاف فينا وإن جارت على قلب الطعين

وأسبغ ظل ذاك الشعر منه على قدّ به هيف الغصون

وهو دعاء لصاحبته ملئ بالظرف والرقة والدماثة، فهو يدعو لأمثاله من العشاق المفتونين بسحر العيون أن يعزهم الله وان يخلد للعيون أو الجفون هذا الملك العريض

من عالم الجمال والسحر، ويدعو للعيون أن تزداد فتورا حتى يزداد سحرها وشرره تأثيراً في القلوب. ويدعو لمثل قوامها وأعطافه أو جوانبه البديعة بالحياة السعيدة وإن أصابته في الصميم: في قلبه. ويستمر في دعائه: أن يسبغ الله ظل ذاك الشعر على قدها الأهيف الضامر ضمور الغصون اللدنة المليئة بالنضرة، ويقول:

لي من هواك بعيدة وقريبة ولك الجمال بديعة وغريبه
يا من أعيذ جماله بجلاله حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها أو لم تكن قلبي فأنت حبيبه
هل حرمة أو رحمة لمتيم قد قل منك نصيره ونصيبه
لم يبق لي سر أقول تذيعه عني ولا قلب أقول تُذيبهُ
والنجم أقرب من لقاك مناله عندي وأبعد من رضاك مغيبهُ

والأبيات تسيل رقة ونعومة وهو فيها يحوط صاحبته بكل ما يستطيع من شباك التضرع والاستعطاف، فهو عاشق واله، وهي ليست جميلة فحسب بل هي أيضا جليلة، وهو يعيذ جمالها بجلالها حذار من عيون الحاسدين. وهي نور عينه وحبه قلبه، وهو يسألها متوسلا بالرحمة أو حرمة الحب لعلها تنيله شيئا من الود، ويعترف بأن آلامه في حبها ذاعت وشاعت، وقلبه يصلى نار حبها حتى ذات التياعا لطول يأسه من لقائها حتى ليظن أن النجم أقرب من لقائها منالا وأبعد من رضاها مغيبا. وهو في غزله دائما ينصب شباك هذا التضرع الطريف كقوله:

بتثني قوامك الممشوق وبأنوار وجهك المعشوق
جُد بوصلٍ أوزورةٍ أو بوعدٍ أو كلام أو وقفةٍ في الطريق
أو بإرسالك السلام مع الرّيح وإلا فبالخيال الطروقِ

وتدل تمنياته في وضوح على خفه ظله، وأنه رقيق رقة مفرطة مع الدماثة والظروف والتدله في الحب واتقاد جذوته في فؤاده. ولكل ذلك سماه معاصروه بحق " الشاب الظريف". وله وراء ما ذكرنا من شعره موشحات ورباعيات بنفس الروح وبنفس اللغة.

حسن[١] البوريني

هو حسن بن محمد البورينيّ، ولد بالأردن في قرية صفورية لسنة ٩٦٣ للهجرة، ونزل مع أبيه دمشق وهو غلام، واختلف فيها إلى حلقات العلماء، ولم يلبث أبوه أن بارحها إلى بيت المقدس، وفيه أتم تعلمه. وعاد إلى دمشق فاشتغل فيها بالتدريس في مدارسها والوعظ في مساجدها. وتولى منصب القضاء في الحد الشامي سنة ١٠٢٠. وكان عالما ثبتا حُفظه فصيح العبارة. وله شرح على ديوان ابن القارض الصوفي بحسب المعنى الظاهر، دون أي محاولة لإقحامه بين المتصوفة المتفلسفين أصحاب أفكار الحلول ووحدة الوجود. وكان سنياً شافعياً. وله كتاب في تراجم الأعيان لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية، وأفاد منه المحبي في كتابه خلاصة الأثر.

وكان البوريني شاعراً مجيداً، وجمع ديوان شعره، ومنه مخطوطة في مكتبة كوبريلي بالآستانة، ويقول فيها الشهاب الخفاجي: " ديباجة الدنيا ومكرمة الدهر، ونكتة عطارد التي يفتخر بها الفخر" وروى له طائفة من غزله، وه وفيه يستقى من نفس المعين الذي استقى منه الشاب الظريف، ونقصد معين الشعر الصوفي وما فيه من وجد ملتاع، ويكفي أنه قرأ ديوان ابن الفارض بل لقد شرحه ووقف عند كل معنى من معانيه وكل لفظ من ألفاظه، فطبيعي أن يتأثر بحبه الإلهي الظامئ أبدا وما فيه من خوالج وخواطر لا تكاد تحصى، تصور الحب الملتاع الذي يصحبه دائما الفراق والحرمان، فما يكاد يهنأ بالحب لحظة حتى ينقع له غراب البين، ويظل في نعيقه وهو يتلهف أشد التلهف على رؤية صاحبته بمثل قوله:

يقولون في الصبح الدعاء مؤثر ... فقلت نعم لو كان ليلي له صبح

وياعجباً مني أروم لقاءه ... وفي جفنه سيف ومن قده رمح

وإنسان عيني كيف ينجو وقد غدا ... يطول له في لجّ مدمعه سبح

وليس عجيبا أن دمعي أحمر ... وفي مهجتي قرح وفي مقلتي رشح

---

(١) انظر في حسن البوريني وشعره، ريحانة الألبا ٤٢/١ وخلاصة الأثر ٥١/٢.

فهو يعيش بدون صاحبته في ليل لا آخر له، ويعجب كيف يريد لقاءها وهي مسلحة بجفنها الساحر وقوامها الممشوق، إنه لم يعد له منها سوى الدموع التي يغرق فيها إنسان عينيه، وما زالت عيناه تدمع حتى استحال دمعها دما، ويشعر كأن في مهجته جرحا لا يبرأ وفي مقلته رشحاً لا يرقأ. ويقول:

وكنا كغُصني بانةٍ قد تألفا ... على دوحة حتى استطالا وأينعا

يغنيهما صدح الحمام مرجعً ... ويسقيهما كأس السحائب مترعاً

سليمين من خطب الزمان إذا سطا ... خليين من قول الحسودِ إذا سعى

ففارقني من غير ذنب جنيته ... وأبقى بقلبي حرقة وتوجعا

عفا الله عنه ما جناه فإنني ... حفظتُ له العهد القديم وضيعاً

وهي قطعة طريفة، إذ يتصور البوريني أنه هو وصاحبته كانا مثل غصنين لشجرة ضخمة من شجر البان وُلدا معا وعاشا معا صيفا وشتاء وتغذيا معًا وتناولا الحياة تناولا واحدا، ينعمان بشدو الحمام وينهلان من كئوس السحاب منتشين هانئين، لا عذول ولا حسود. وفجأة تهجر صاحبته من غير ذنب جناه. ويصطلى قلبه بنار الحب المحرقة وأوجاع الهجران المؤلمة، ومع ذلك يدعو الله أن يغفر لصاحبته جنايتها، إذ ضيعت العهد والميثاق القديم، أما هو فلا يزال ذاكراً له بل حافظا أميناً. ويقول:

منازلُ هذا القلب كن أواهلاً ... وها هي من بعد الفرق طُلولُ

ويا طبي هل بعد النفار تأنس ... ويا بدر هل بعد ألافول قفولُ

ويا منزلَ الأحباب أين ترحلوا ... وهم في فؤادي- ما حييتُ- نزولُ

يميلون عني للوشاة وإنني ... إليهم وإن طال الصدود أميل

عليّ لهم حفظُ الوداد وإن جنوا ... وليس إلى نقْض العهود سبيلُ

وقد فارقته صاحبته وأصبحت منازل قلبه طلولا دراسة، وإنه ليتساءل متحسرا هل بعد النفور تألف وهل بعد أفول البدر قفول ورجوع، ويسأل منزل الجيبة وقومها أني ترحلوا، ويقول إنهم نزول في قلبه لا يفارقونه أبدا، وحتى إن هم سمعوا للوشاة وأطالوا له الصدود والهجران فسيظل متعلقا بهم حافظا لودادهم لا ينقض العهود لا ينكثها، بل

سيزداد تعلقه وحبه واستمساكه. وما يلبث أن يخاطب في نفس القصيدة قمريا أو كما يسميه ابن ورقاء أي حمامة رمادية اللون قائلاً:

وما هاجني إلا ابنُ ورقاء سُحرة	له فوق أفنان الرياض هديل
يردد في حصف الرياض قصائدا	من الشوق يُمليها لنا ويميلُ
يخيل أن البين آذى فؤادهُ	وكيف ولما ينأ عنه خليل
ولم تحتكم فيه الليالي ولم يَبن	عليه لبين رقة ونحول
أما والهوى لو ذقت ما ذقتُ في الهوى	لما ازدان بالأطواق منك تليلُ
ألا إنه ما فارق الالف دهره	ومالي إلى وصل الحبيب وصولُ

وهو يوازن بينه وبين قمري يتغنى سحرا بأشواق ماس يني يرددها في صحف الرياض ويمليها مخيلاً كأنه يشكو من آلام بين مبرح ولا بين ولا فراق، فحبيبته بجانبه لم تفارقه ليلة، ولا أصابه لفراقها ضنى ونحول. ويقسم له بالهوى لو ذاق أوجاعه وتباريحه ما ازدان تليله أو عنقه بطوق، ويقول له إنه لم يفارق أليفته يوما بينما هو يتلظى بنار الفراق والهجران. وكن يعرف الفارسية وقد ترجم عنها قوله:

ورقُ الغصونِ دفاتر مشحونةُ مملوءة بأدلة التوحيدِ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على روعة غزلياته، وهو فهيا دائماً مشوق يتمنى الوصل وأن تذوب حُجب الهجران. وما زال يردد هذا المعنى وما يتصل به، حتى لبى نداء ربه بدمشق لسنة ١٠٢٤ للهجرة.

٢

شعراء الفخر والهجاء

موضوعا الفخر والهجاء من موضوعات الشعر القديمة منذ الجاهلية، ومعروف أن شعر الفخر والحماسة الحربية غلب عليها قديما، حتى سمى أبو تمام مختاراته الشعرية الكبرى باسم الحماسة تغليبا لهذا الموضوع على موضوعات الشعر الأخرى عند العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وكان يرحمه من قديم شعر الهجاء، إذ كانوا يفخرون بانتصاراتهم الحربية ويهجون خصومهم بهزائمهم، يستثيرون بذلك قبائلهم لتخوض معارك جديدة أشد فتكا في الأعداء. وكانت معارك العرب- على مر السنين- بينهم وبين الأمم وقوداً مستمراً للفخر والهجاء، فلم تخمد لهما نار، بل لقد اشتد أوارها كلما تقدمنا مع الزمن، وكان شعراء الشام يشاركون في تلك المعارك بسهام شعرية النارية. ونكتفي بذكر شاعرين كبيرين قريبين من هذا العصر هما أبو تمام والبحتري، وكانا أشبه بمكاتبين حربيين، فهما يحضران المعارك مع ثوار إيران ومع الروم في آسيا الصغرى، ويصوران كيف احتدمت الحرب وبلاء الجيوش العباسية وقوادها فيها وما أنزلوا بالأعداء من محق لا يكاد يبقى منهم باقية. وبجانب هذا الفخر والهجاء الحربي كان هناك الفخر والهجاء السلميان اللذان ينظمها الشعراء لبيان ما يشتملون عليه هم وأقوامهم، أو هم أنفسهم، من مثالية خلقية رفيعة وما يتصف به أعداؤهم أو بعض خصومهم من أخلاق شائنة يزدريها المجتمع. وهذا الفخر والهجاء الجماعيان والفرديان نجدهما عند أبي تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء، وكثيرا ما كان يحدث ذلك بين الشعراء أنفسهم، فنجد- بعامل المنافسة- شاعرا يفاخر زميلا له ويهاجيه.

وكل ذلك نراه شائعا في هذا العصر: عصر الدول والإمارات، وكانت الحرب محتدمة في أوائله بين سيف الدولة الحمداني أمير حلب وبين الروم، وكان يكيل لهم ضربات قاصمة، مما جعل كثيرين من الشعراء يمدحون بطولته وبطولة جيوشه العربية مفاخرين الروم وهاجين منذرين جموعهم بمعارك تدق أعناقهم دقا ولا تبقي ولا تذر. وبجانب ذلك نجد الفخر والهجاء الفرديين محتدمين بين بعض شعراء حاشيته على نحو ما حدث بين الخالديين والسري الرّفاء. وشاعر الفخر الشامي الذي لا يباري في القرن

الرابع الهجري أبو فراس الحمداني، وسنخصصه بترجمة مفردة. وربما كانت أروع قصيدة فخر نظمها شعراء الشام في القرن الخامس الهجري قصيدة أبي العلاء المعري التي أشرنا إليها في ترجمته وفيها يقول [(١)]:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ   عفاف وإقدام وحزم ونائل
تُعد ذنوبي عند قوم كثيرة   ولا ذنب لي إلا العُلا والفضائل
وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم   بإخفاء شمس ضوءها متكامل
وإني وإن كنت الأخير زمانهُ   لآت بما لم تستطعه الأوائل
ولي منطق لم يرض لي كُنه منزلي   على أنني بين السماكين نازل
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيًا   تجاهلتُ حتى ظُن أني جاهلُ
وواعجبا كم يدعى الفضل ناقص   وا أسفا كم يُظهر النقص فاضل
ينافسُ يومي فيّ أمسي تشرفا   وتحسدُ أسحاري عليّ الأصائلُ

والقصيدة تناقض شخصية أبي العلاء المتشائمة الزاهدة في الحياة وكل ما فيها من مجد، وإما نظمها تقليدا ومحاكاة لسابقيه في فن الفخر، وإما نظمها في ساعة غضب ردا على بعض شانئيه وخصومه. ومع ذلك فيه تصور مكانته في الأدب العربي، وأنه فيه- بحق- السابق المجلّي، وهو يقول: من أين ليلحقني الذم وأنا أنهض بكل ما يسكبني المجد والشرف من العفاف الطاهر والإقدام الجرئ والحزم النافذ والنائل أو الجود السابغ، ويقول إنه ليس فيه ذنوب ولا عيوب إلا إذا عُدت العلا والفضائل ذنوبا وعيوبا، ولن تعد المحاسن كذلك أبدا. وإن ذكره ليعم البلاد كما يعمها ضوء الشمس الغامر الذي لا يستطيع أحد إخفاءه، وإن كان زمانه قد تأخر فإنه أتي بما لم يستطعه الأوائل، ومع أنه بين السماكين في السموات العلا لا يزال منطقة أو عقله يطلب منزله أعلى شأنا. ولما رأى الجهل فاشيا تجاهل حتى ظن الأغبياء أنه جاهل، وتعجب من ادعاء الناقص الفضل وتحسّر على تظاهر الفاضل بالنقص. ويقول إن كل وقت يتمنى أن يكون فيه دون غيره من الأوقات، فأمسه يحسد عليه يومه وأصيل اليوم

(١) ديوان سقط الزند (طبع دار الكتب المصرية) ٢/٥١٩.

يحسد عليه سره. ويمضى أبو العلاء في القصيدة بهذا الصوت الضخم المجلجل كالرعد القاصف.

وكان يعاصر أبا العلاء ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وله يفتخر بقومه وبلائهم في حرب الثغور ضد الروم [١]:

أهل الثغور إذا تلم ملمة بسطور رماحاً دونها وسواعدها

وأولوا التقى فإذا مررت عليهم لم تلق إلا مكرنا ومجاهدا

إن حاربوا ملئوا البلاد مصارعاً أو سالموا عمروا الديار مساجدا

بيت له النسب الجلي وغيره دعوى تريد أدلة وشواهدا

وهو يفخر ببأس قومه وتقواهم وأنهم في الحرب يملئون ساحات المعارك بينهم وبين الروم صرعى مقتولين. وإذا أفضوا إلى السلم ملئوا الديار مساجد، ويقول إن بيتهم عريق في العرب لا يطاوله أي بيت. ومن شعراء الفخر في زمن الفاطميين والأيوبيين أسامة بن منقذ وسنفرد له ترجمة- ولابن الساعاتي المار ذكره [٢]:

وإني لآبي الضيم من كل صاحبٍ وأكره قلبي أن يكون له خدنا

وإن بلد لم أغد فيه مكرماً نهضت فأعملت الجديلية البُدنا [٣]

وما شان فضلي بين أهلي خموله وقد بلغت غاياته الإنس والجنا

فإني كعود الهند هين بدوحه وقد عبقت أنفاسه السهل والحزنا

فهو يأبي الضيم شاعرا بالكرامة شعورا عميقا، حتى لو أحسّ أن بلدا ينبو به رحل عنه إلى غير إياب، ويبالغ في بيان فضله قائلا إنه شاع بين الإنس والجن، وإن اعتراه خمول بين أهله فمثله مثل عود الهند لا يُعرف فضله في دوحته، بينما رائحته العطرة تملأ السهل والحزن من الأرض.

---

(١) ديوان ابن سنان الخفاجي ص ٢٣.

(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٢١٤.

(٣) الجديلية البدن: النوق الضخمة.

ونظل نستمع إلى هذا الصوت الأجش المعتز بنفسه وكرامته طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين كقول ابن الجزري المار ذكره [١]:

يقدّمني عزمي وحظي مؤخري ... ويوصلني حزمي ودهري يقطع

وهمي من الدنيا المعالي ونيلها ... وما هم قلبي الرقمتان ولعلع [٢]

ولا رشا أحوى ولا صوت قينة ... ولا قدح فيه الرحيق المشعشع [٣]

ولكنما لدن وأجرد سابح ... ومسرودة زعفا وأبيض يسطع [٤]

وهو صاحب عزم وحزم ونفاذ في الأمور وإن لم يسعفه الحظ والدهر. وهمه طلب المعالي والظفر بها لا بمن يسكن روضتي الرقمتين وجبل لعلع من سمر الشفاه، ولا بمن يتغنين غناء جميلا، ولا بالأقداح من رحيق الخمر وشرابه،. إنما همه رمح لين قاتل وفرس مسرع ودرع واسعة محكمة وسيف ساطع يضئ في غبار الحرب حين يسله على رقاب الأعداء. إنه من أهل العزم والحزم والمعالي لا يشغف بحب ولا بغناء ولا بخمر، إنما يشغف بالبأس في الحرب وتقتيل الرجال وسفك دمائهم.

وبجانب هذا الفخر كان يدور هجاء كثير، وخاصة لمن لا يجزون الشعراء الجزاء الوافر وكثيراً ما كانت تحتدم بينهم المنافسات، فيفزعون إلى سهام الهجاء يصوبها الخصم منهم إلى خصمه صباح مساء. وقد يصبح الهجاء سهاما سامة قاتلة، وقد يصبح سخرية جارحة، وقد يصحب دعابة وإن لم تخل من مرارة، كقول عبد المحسن الصوري وقد نزل ضيفا على أخ له [٥]:

وأخٍ مسه نزولي بقرحٍ ... مثل ما مسُني من الجوع قرح

بت ضيفاً له كما حكم الدهـ ... ـرُ وفي حكمه على الحر قُبح

قال لي إذ نزلت وهو من السكرة ... والهم طافح ليس يصحو

---

(١) ريحانة الألبا ١/١١٨.

(٢) القمتان: قرتان في شرق نجد أو روضتان ويذكرهما شعراء الغزل. لعلع: جبل في نجد.

(٣) الرشأ: ولد الظبية وتشبه به الفتيات، والحوة: سمرة في الشفة، الرحق المشعشع: العسل الممزوج.

(٤) اللدن: المرح. أجرد: فرس، مسرودة: درع. زغفا: سابغة، أبيض: سيف

(٥) اليتيمة ١/٣٠٠.

لم تغربت قلت قال رسول الله والقولُ منه نُصح ونجعُ

سافروا تغنموا فقال وقد قال تمام الحديث صوموا تصحوا

وهي دعابة تلسع لسع الإبر، فقد صور نزوله على مضيفه بقرح وهو ما يصيب الإنسان من عض السلاح ونحوه، كأنما نزوله عليه كان كارثة، وقال إنه مسه من الجوع قرح لا يزال ينز ألما، وكأنما يستلهم آية سورة آل عمران: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ) أي إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر. ويقول إن الدهر هو الذي حكم عليه هذا الحكم القبيح، ولقد أصابته سكرة من الشح والهم، فسأله سؤالا مزريا: لم تغربت ونزلت عندي، فأجابه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم سافروا تغنموا، فبادر إليه يقول: تمام الحديث: صوموا تصحّوا، وكأنه يطلب إليه أن يظل جائعا بل أن يصوم ويظل صائما ما ظل عنده. ويقول الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ في هجاء حاكم من حكام إيران يسمى شروانشاه [١]:

رأيت لؤما مصورا جسدا شيمته الاحتيال والكذب

على سرير كالنعش لا رهب يعلوه من هيبةٍ ولا رغب

يجبه بالهُجر من يخاطبه بين السّعالي وبينه نسب [٢]

يفرقه الناس للسفاهة والـ ـعقربُ يُخشى وخده ترب

للجمع والمنع قائم أبداً كالفيل لا تنثني له رُكب

وهو هجاء لاذع كوى به جلد هذا الحاكم، بل لقد تحولت الأبيات في يد الغزي إلى ما يشبه سياطا بل شؤاظا من نار يصبه فوق رأسه صبا، فهو تمثال للؤم والكذب، يجلس لا على سرير بل على نعش لا يظله رهب منه ولا رغب في ماله، لما عُرف عنه من شحّ بغيض، وأنه يصكّ مخاطبه بكلام قبيح، وكأنما هو ليس من البشر، بل عن بينه وبني الغيلان نسبا ذميما. والناس يخشونه لسفاهته كما يخشون العقرب وخدها ملطخ بالتراب، وكأنما خلق كالفيل قائما أبدا إذ لا ينام فعيناه مشدودتان دائما لجمع المال ومنعه من مستحقيه شُحاً بغيضًا لا يدانيه شح.وكان العرقلة الكلبي المتوفى سنة

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٩/١

(٢) السعالي: الغيلان

٥٦٧ كثير الهجاء حتى هجا نفسه، وله من أبيات وقد أعطاه بعض من مدحهم لا مالا، بل شعيرا فقال [١]:

يقولون لم أرخصت شعرك في الورى فقلت هم إذ مات أهل المكارم

أجازي على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ومنذ زمن الغزي يشكو الشعراء كثيرا من أنهم لا ينالون ما يستحقونه على أشعارهم من ممدوحيهم، بل عن منهم من يعطيهم رُقعا مسطرة دون أن يفي بما فيها، وكأنها كلام كاذب بكلام. ومن كبار الهجائين في أيام الأيوبيين بدر الدين عبد الرحمن بن المسجّف المتوفى سنة ٦٣٥ للهجرة، وله يهجو جماعة من إخوانه أو عصابته كما يقول [٢]:

يا رب كيف بلوتني بعصابة ما فيهم فضل ولا إفصالُ

متنافري الأوصاف يصدق فيهم الهاجي وتكذبُ فيهم الآمال

جُبن إذا استنجدتهم لملمةٍ لؤمًا إذا استرفدتهم بُخال

هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمةٍ آلُ وهمْ عند الشدائد آلُ

وهو يخلي عصابته من كل فضل ويرياها جديرة بكل مذمّة في مهجوّ إذ تكذب فيها دائما الآمال. ويصف أفرادها بأنهم جبناء عند الشدائد، لؤماء بخلاء، وهم في الرخاء أهل أو آل كما يقول، وفي الضراء سراب أو آل يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. ووليّ السلطان الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ قضاة أربعة يمثلون المذاهب الفقهية: المذهب المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي ولقّب ممثلي هذه المذاهب ما عدا المذهب المالكي شمس الدين، فاتخذ الشعراء ذلك موضوعاً للهجاء الفكه الساخر من مثل قول بعضهم [٣]:

أهل الشام استرابوا من كثرة الحكام

إذ هم جميعا شموسّ وحالهم في ظلام

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ١٨٢/١

(٢) فوات الوفيات ٥٣٩/١

(٣) النجوم الزاهرة ١٣٧/٧ وانظر ذيل الروضتين لأبي شامة (الطبعة الأولى) ص ٢٣٦

وكان شرب الحشيش المخدر عُرف بين أراذل الناس يدخنونه ويمضغونه وقد يبلعونه، وشددّ الظاهر بيبرس النكير على من يتعاطونه، ونظم كثير من الشعراء في ذمه كقول الشاب الظريف [١]:

ما للحيشةٍ فضل عند آكلها لكنه غيرُ مصروفٍ إلى رشده

صفراء في وجهه خضراء في فمه حمراء في عينه سوداء في كبده

وهو يقبّحها غاية التقبيح بآثارها في ماضغها من صفرة تعتري وجهه وحمرة تشوب عينه وسواد لا يزول في كبده. ويقول مجبر الدين بن تميم المتوفى سنة ٦٨٤ للهجرة في هجاء كحّال [٢]:

دعوا الشيخ من كمحل العيون فكفه يسوق إلى الطرف الصحيح الدواهيا

فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسواده وألقت بياضا خلفها وماقيا

فكحله يعمي الأبصار ويقضي قضاء مبرما على سوادها ونظرها ولا يبقي بها بصيصا ولا غير بصيص. ولبعض شعراء دمشق في هجاء القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني الشافعي المتوفى سنة ٨١٦ للهجرة [٣]:

---

(١) النجوم الزاهرة ٣٨١/٧.

(٢) فوات الوفيات ٥٤٠/١.

(٣) النجوم الزاهرة ١٤ /١٢٤

قضاء الشام أنشدني بديني لا تبيعوني
صُفعت بكل مصفعةٍ وبعد الكلّ باعوني

وكأنه أدخله فيما نزل بهذا القضاء من صفعات متوالية، وفي كلمة "باعوني" تورية واضحة فهو لا يقصد" باعوني" من البيع وإنما يقصد القاضي الباعوني.

ويظل الهجاء على ألسنة الشعراء يرمون بسهامه من لا يروقهم من الحكام ومن لا يسبغ عليهم نواله حتى أيام العثمانيين، على شاكلة قول يوسف بن عمران الحلبي المتوفى سنة ١٠٧٤ للهجرة في بخيل (١):

بخيلُ لو بيوم منه جادتْ أنامله لغالته الندامة
ولو في النار ألقى ألف عامٍ لما عُرفت له يوما سلامة
ولو صارت بسُفرته رغيفا ذُكاء لما بدتْ حتى القيامة

فهو شحيح لو فاته شحُه يوما لظل نادما أبدا. وما تُجرى له سلامة من النار بل سيظل خال، فيها وإن مائدته لتخلو دائما من كل طعام حتى من الخبز ورغفان العيش المستديره كالشمس، ولو أنه ألقى رغيفا عليها ناسيا لاستترت الشمس حتى القيامة كسوفا وخجلا أن يرى شبيهها على سفرته أو مائدته. وحري بنا أن نترجم لنفر من شعراء الفخر والهجاء.

---

(١) ريحانة الألبا ١٠٨/١

أبو فراس[١] الحمداني

هو الحارث بن سعيد بن حَمْدان الحمداني التغلبي، كان أبوه واليا على الموصل للخليفة الراضي، وكان مشهورا مثل إخوته وأبناء أسرته بالفروسية والشجاعة، واقترن برومية أنجب منها ابنه الحارث سنة ٣٢٠ ولقبه أبا فراس وهي كنية الأسد رمزاً لفروسيته المستقبلة وهو رمز حققته الأيام. ولم يلبث سعيد أن قُتل غدرا وابنه يخطو في سنته الثالثة، وعنيت به أمه، وأحضرت له المعلمين في صباه. ولم يلبث ابن عمه وزوج أخته سيف الدولة الحمداني أن اشترك مع الأم في العناية والرعاية، حتى إذا اقتطع لنفسه حلب وبعض ثغور الشام انتقل إليها ومعه أسرته سنة ٣٣٣ ومعه أبو فراس الذي كفله وقام على تربيته فارساً وأديباً خير قيام، إذ أعطاه لبعض المدربين يدربونه على الفروسية، ولبعض المعلمين والمؤدبين من مثل ابن الخالوية وسرعان ما ظهر فروسته ونجابته، فمنحه ضيعة بمنبج بلدة بقرب حلب، ولم يلبث أن ولاه عليها وهو شاب في السادسة عشرة من عمره، وكان يلزم ابن عمه في حروبه للروم وقد يسوق إليهم فيالق يقودها بنفسه ويعود إلى منبج، مفضيا أحيانا إلى الصيد وبعض اللهو، وفي ديوانه مزدوجة طردية. غير أن من الحق أنه لم يكن مشغوفا بصيد الحيوان إنما كان مشغوفا بصيد أعداء العروبة والإسلام من الروم. ومرّ بنا في حديثنا عن شعراء التشيع أنه كان شيعي الهوى، وقد عرضنا لميمته الملقبة بالشافية التي دافع فيها عن العلويين ضد العباسيين دفاعاً حاراً. وتشيّع الحمدانيين عامة مشهور وكانوا شيعة إمامية.

وظل يركب في مقدمة الصفوف مع ابن عمه وصهره لدق أعناق الروم، وحاول أن يستخلفه عنه بحلب في إحدى غزواته، فاستعطفه راجيا أن يصحبه في حربه. وكان داما يبلى بلاء حسنا في تقتيلهم وتمزيقهم شر مزق، وفي يوم من أيام شوال سنة ٣٥١ كان عائدا إلى منبج من الصيد مع غلمانه وإذا بكتيبة من الروم بقيادة " تيودور" تباغته فيدافع إلى أن تثخنه الجراح ويصيبه سهم في فخذه ويبقى نصله فيه، ويؤسر البطل

---

(١) انظر في أبي فراس وشعر، اليتيمة ٣٥/١ وما بعدها وتهذيب ابن عساكر ٤٣٩/٣ وزبدة الحلب ١٥٧/١ وابن خلكان ٥٨/٢ والشذرات ٢٤/٣ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢ ومقدمة د. سامي الدهان لتحقيقه لديوانه وقد قابله على ٤٠ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالمين العربي والغربي ووضع حواشيه ورتب فهارسه.

المغوار، ويقدم به تيودور إلى خرشنه ويظل بها فترة. ثم ينقل إلى القسطنطينية، ويذوق ذل الإسار وألم الجراح، غير أن نفسه تظل صلبة عاتية لا تتكسر أبدا، بل تزداد مع الأيام عتواً وصلابة. ويُكبر الروم في أبي فراس فروسيته وبطولته فينزلونه في قصر على البحر ويخصصون له خادما يقوم بأمره، ويأبى أن يخلع دروعه وسلاحه، فيظل بهما في أسره.

ويطول الأسر أربع سنوات. فتكثر أشعار أبي فراس إلى أهله وسيف الدولة وخوانه مؤملا في الإسراع بفدائه، وكان محمد أخره أن سيف الدولة يريده فداء عاما له ولكل من معه من المسلمين ممن وقعوا قهرا في شراك الروم. وفي سنة ٣٥٥ يتفق الروم وسيف الدولة على اللقاء لفداء أسرى الطرفين، وفي شهر رجب ينزل أبو فراس مع ثلاثة ألاف أسير عربي بخرشنه، ويقدم سيف الدولة بأسرى الروم ويفتدي بهم أبا فراس ومن معه من أسرى العرب. ويتم الفداء ويعود أبو فراس إلى حلب. وتأثر تأثراً شديداً لمرض سيف الدولة وما أصابه جنوده من انكسارات وانهزامات متلاحقة. ويتوفى سيف الدولة في السنة التالية، ويدور العام، ويحاول أبو فراس الاستيلاء على حمص من يد ابن سيف الدولة أبي المعالي ويلقاه مولاه قُرغويه في جمادي الأولى سنة ٣٥٧ ويكون في ذلك حتفه، ويقال إنه سقط جريحا في ساحة الحرب وشعر بدنو أجله فأنشد أبياتا يخاطب بها ابنته معزياً قائلا ي ختام أبياته بلسان حالها:

زين الشباب أبو فِراس لم يمتّ بالشباب

وطبيعي أن لا يكون المديح الموضوع الذي يستنفذ شعر هذا الأمير الفارس، إذ لم يكن في حاجة إلى التكسب بشعره، وأن يكون الفخر هو الموضوع الذي يستغرق شعره: فخره بقبيلته تغلب وأمجادها منذ الجاهلية، وبأسرته الحمدانية ومناقبها وما قدمته للعباسيين من انتصارات على الخوارج والقرامطة، وعلى الروم القطعّ الأرجوانية في ديوانه، وفيها غزل ورثاء واستعطاف كثير لابن عمه سيف الدولة كير يرد إليه حريته ليعود معه لمنازلة الروم وقراعهم قراعا لا يبقى منهم ولا يذر، وبين قصائدها بائية يرد بها ردا عنيفا على الدمستق حين طعن في العرب وبسالتهم الحربية، وفيها أخذ يذكره باندحاراتهم أمام سيف الدولة ومقتل أخيه في مرعش وجرح أبيه بها في وجهه وأسر ابن أخته في اللقان وما كان من فراره على وجهه لا يلوى. وهو في روملياته يحنّ إلى

ملاعب صباه وشبابه ويشتاق إلى زوجه وأبنائه ويرثى لأمه العليلة وهي تسأل عنه الركبان حين أُسر قائلاً على لسانها:

يا من رأى لي بحصن خرشنة أسد شرى في القيود أرجلها

ويرد عليها مسرعاً:

يا أمتا هذه مواردُنا نعلها تارة وننهلها [1]

فمواردهم الحرب، يقتلون الأعداء وتقتلهم ويأسرون الأعداء وتأسرهم ولا تنال القيود الثقيلة من أقدامهم. ويقول في قصيدة ثانية: لولا أمي العجوز ما خفت أسباب المنية ولا طلبت الفداء من ابن عمي أبدا. ويقول لها:

يا أُمتا لا تيأسي لله الطافُ خفيه

أوصيك بالصبر الجميـ ـل فإنه خير الوصية

فهو واثق في الله ثقة تامة، وهو لا ييأس أبدا من فضله ورعايته، مع عزة نفس لا تماثلها عزة بل مع صلابة روح لا تشبهها صلابة، وتبدو هذه الصلابة منذ أيامه الأولى في الأسر ونزولهم به في خرشنه، إذ سرعان ما أنشد:

إن زرت خرشنة أسيراً فلقد حللتُ بها مغيرا

ولئن لقيت الحزن فيك فقد لقيتُ بك السرورا

ويقول إنهم طالما فتكوا بأهلها وسبوا نساءهم الحور الفاتنات، وكم أشعلوا بها نيرانا التهمت المنازل والقصور وأتت عليها كأن لم تكن شيئاً مذكورا. ونشعر كأنما تجسدت في روح أبي فراس كل معاني القوة العاتية التي تميز بها العرب وفتحوا بها العالم القديم من أواسط آسيا إلى شماليّ إسبانيا، على الرغم من أسره وما كان يعانيه من ألم وحزن، وكأنما يحمل بين جنبيه روحا لا يمكن أن تقهر مهما نزل بها من كوارث وخطوب.

---

(١) نعلها: نشرها تبعا، ننهلها: نشرها ابتداء.

وربما كان أروع قصائد أبي فراس حينئذ قصيدته الرائية التي نظمها حين قال الروم إن أبا فراس وحده من بين الأسرى هو الذي لم نسلب منه سلاحه، وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صواحبه.

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر

بلىّ أنا مشتاق وعندي لوعة ... ولكن مثلي لا يُذاع له سر

معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

تسائلني من أنت؟ وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حالة نكر

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك قالت أيهم فهم كثر

وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا ... فقلت معاذ الله بل أنت والدهر

وهو حوار وغزل فيهما فتوة وقوة، فهو لا يبكي، بل هو صابر صبر الرجال الأشداء، مع ما يستعر في قلبه من لوعة إزاء معللته بوصل لا يناله، وكأنما تغير كل ما فيه فلم تعرفه وتسأله من أنت؟ تجاهل العارف، فيقول لها قتيلك، فتسأله أيهم فهم كثيرون. وتقول له: لقد نال منك الدهر، يكني بذلك عن أسره، فيقول لها معاذ الله: بل أنت والدهر. ويمضي في حوارها قائلاً لها: لا تنكريني يا ابنة العم فإنني غير منكر في معمعان المعارك وقيادة الكتائب المعودّة النصر واقتحام المخاوف والمخاطر المهلكة إلى الروم أسفك دماءهم وأسبى نساءهم دون أن أهتك لهم سترا أو أكشف لهم ثوبا، وما يلبث أن يصيح بكل فتوته:

أسرت وما صحبي بغزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر [1]

ولكن إذا حم القضاء على امرئ ... فليس له بر يقيه ولا بحر

يمنون أن خلوا ثيابي وإنما ... عليّ ثياب من دمائهم حُمر

سيذكرني قومي إذا جد جدهم ... وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

---

(١) غمر: قليل التجربة. عزل: لا يحملون سلاحا

أعز بني الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

يقول: أُسرت ووراءي صحبي يشهرون السيوف في الحرب ولا يغمدونها أبدا، إنهم فرسان أبطال، وما أصرت جبنا ولا كان فرسي مهرا صغيرا بل كان مدربا على القتال، وكان صاحبه فارسا شجاعا يحسن النزال والفتك بالأعداء، وإنما هو القضاء الذي لا مَعدي عنه ولا مفر منه في بر أو بحر. ويتجه إلى الروم غاضبا لقولهم إنهم منوا عليه بتركه لابسا لأمته وعدته الحربية، وهو استشعار للفتوة والقوة ما بعدها استشعار. ويقول إن دروعه ملطخة بدمائهم، إذ طالما دقّ نصال سيوفه في أعناقهم وصدورهم. ويلتفت إلى قومه فيقول إنهم سيذكرونه حين تدق أجراس الحرب، سيذكرون فروسيته وبطولته وبلاءه في الأعداء. وكأنما يضع قوانين الشباب العربي والأمة العربية، إنها ترمى بنفسها في أتون الحرب فإما الصدر دون العالمين أو القبر، وإن رجالها وأبطالها ليبذلون أرواحهم في نيل المعالي، ومن خطب الحسناء لم يغله المهر ولم يعده باهظا، بل إنه يقدمه راضيا حتى لو كان روحه وقلبه. ويقول من مثلنا: نحن أعز الناس وأعلاهم وأكرمهم بذلا. والقصيدة تعويذة رائعة لفتوة العرب وصلابتهم، وهي جديرة بأن يضمّها كل شاب عربي إلى صدره وذاكرته يحفظها ويترنم بأبياتها البديعة. وحانت منه التفاتة- وهو في سجنه- إلى شجرة عالية فرأى على أحد غصونها حمامة وسمعها تنوح، فأنشد:

أقول وقد ناحت بقربى حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي

معاذ الهوى ما ذُقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال [١]

أتحملُ محزون الفؤاد قوادم على غُصن نائي المسافة عالي [٢]

ايا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندبُ سالي

لقد كنت أولى منك بالدمع مُقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

---

(١) النوي: الفراق

(٢) القوادم: ريشات أربع كبار في مقدم الجناح.

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجون في نفسه، ويُعيذها من نوى وفراق كفارقة وغربه كغربته وهموم كهمومه. ويتسائل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤادا محزونا؟ ويقول إن الدهر لم ينصف بينهما ويتساءل كيف يضحك أسير فقد حريته وتبكي حرة طليقة؟ بل كيف يسكت مخزون ويخرس لسانه وتندب سالية ندبا متصلا؟ ولا يلبث أن يقول لها: لقد كنت أولى منك بالبكاء بكاء لا تنقطع دموعه بل تظل منهمرة، غير أن دمعي في الحوادث والنكبات غال لا يسيل أبدا، وإنه ليتجشّم أثقالها ويتحملها في قوة. وشعر أبي فراس وراء روملياته يكتظ بالفخر والحماسة، وله قصيدة رائية في ٢٢٥ بيتا فخر فخرا مضطرما بمناقب أسلافه الحمدانيين وأيامهم في الإسلام وما شادوه من إماراتهم في الموصل وحلب. وشعره- بحق- يُضرم الحمية في النفس العربية.

عَرقلة[1]

هو حسان بن نمير الكلبي الدمشقي، ولد سنة ٤٨٦ وحفظ القرآن صغيرا ثم اختلف إلى حلقات العلماء، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفتحت، فغدا بعشره على أبواب حكام دمشق يمدحهم وينال جوائزهم. وكان لأسرة طغتكين نصيب كبير من مديحه، وخاصة آبق آخر حكامهم لدمشق قبل استيلاء نور الدين أمير حلب عليها. ويبدو أن الرحلة كانت محببة إليه، إذ نراه يرحل إلى حلب ويفقد إحدى عينيه في تلك الرحلة، ولذلك لقبه معاصروه بعرقلة الأعور، ورحل إلى الموصل وبغداد ونزل في قلعة جعبر ومدينتي آمد وماردين. وزار مصر وبقى بها مدة وتوثقت الصلة فيها بينه وبين الوزير طلائع بن رزيك وكان شيعيا أماميا، وله فيه طائفة من المدائح، ويذكر له في إحدى مدائحه أنه شيعي قائلاً:

أنا من شيعة الإمام حُسين لستُ من سنة الإمام يزيد

فهو ليس سنياً ممن ارتضوا يزيد بن معاوية قاتل الحسين إماما لهم، بل هو شيعي من أنصار الحسين. وعاد إلى دمشق وكانت تابعة لنور الدين، وكان أيوب بن شاذي

---

(١) انظر في عرقلة الدمشقي وشعره الخريدة (قسم الشام) ١٧٨/١ و فوات الوفيات و النجوم الزاهرة ٦٤/٦ والشذرات ٢٢٠/٤ وقد طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ديوانه.

وأخوه أسد الدين شيركوه وابنه صلاح الدين في مقدمة حاشية نور الدين ورجاله، وتولى بعضهم شئون دمشق وكان صلاح الدين على شرطتها فاتصل بهم يمدحهم وأسبغوا عليه عطاياهم، وكان خفيف الروح فقربوه منهم واتخذوه نديما لهم في مجالس لهوهم وسمرهم. وكان صلاح الدين من بينهم يوده ويصادقه ويُحضره مجالس أنسه. ووصفه العماد الأصبهاني حينئذ فقال: "لقيته بدمشق شيخا خليعا ربعْة مائلا إلى القصر أعور مطبوعا حلو المنادمة لطيف النادرة معاشر للأمراء، شاعرا مستطرف الهجاء، لم يزل خصيصا بالأمراء السادة بني أيوب ينادمهم ويداعبهم ويطايبهم قبل أن يملكوا مصر، والملك الناصر صلاح الدين يوسف -أشغفهم بنكته، وأكلفهم بسماع نتفه، وله فيه مدائح، ولديه منه منائح" وكان صلاح الدين وعده أنه متى ملك مصر يعطيه ألف دينار، ووفى له بوعده غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٥٦٧.

ويبدو أن عرقلة كان في أوائل حياته يقصد أوساط الناس، ومدح شخصا مرة فأعطاه شعيرا. فغضب، وأنشد ما مرّ ذكره في قوله:

يقولون: لم أرخصت شعرك في الورى فقلتُ لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثيرُ إذا استخلصته من بهائم

واشتهر في زمنه بأنه هجاء كبير ويقول العماد- كما أسلفنا- إنه كان مستطرف الهجاء، إذ كان يحاول فيه التندير إضحاكا لسامعه وجلبا لسروره، كقوله في مغن ضارب على العود لم يعجبه صوته ولا ضربه وتلحينه:

عليّ صوته سوط علينا لا على الفرس
وجملةُ ضره ضرب لمدرعٍ ومُتّرسِ
يقول السامعون له رماه الله بالخرسِ
وخذ يا رب مهجته إذا غني: (خذى نفسي)

فهو لا يجعل صوته يصك الأسماع فحسب، بل يجعله يكويها كي السياط للخيل، أما ضربه فكأنه ضرب حقيقي يضرب به دروعا وتروسا لا ألحانا تُشجي السامعين

وتطـربهم، ممـا يجعلهـم يـدعون عليـه بـالخرس بـل بـالموت حـين يغنـي، وكـان بالصـدفة يغني مقطوعة أولها: " خُذي نفسي". ويقول لبعض مهجوية:

لك وجه كأنه الـ بَدرُ لكن إذا كسف

وقوام كأنه الـ غُصن لكن إذا انقصف

وبنان كأنه الـ . بحر لكن إذا نشف

وأب أكذب الأنام ولكن إذا حلف

وهـو فـي الأبيـات الثلاثـة الأولـى يبـدأ بالمـدح لكـن لا يلبـث أن يمحـوه بـل أن يـرده عليـه هجـاء وإقـذاعا شـديدا، فهـو صـاحب وجـه كاسـف وقـوام قصـر منقصـف وبنـان شـحيح لا يقطـر بـأي خيـر، أمـا أبـوه فكـذاب أشـر. وكـان بدمشـق فـي زمنـه طبيـب يسـمى أبـا الحكـم تصـادف أن وقـع لـيلا فانشـتر جفـن إحـدى عينيـه، وكـان هـذا الطبيـب كثيـرا مـا يرثـى مـن يموت فقال عرقلة متندراً عليه:

لنا طبيب شاعر أشتر أراحنا من شخصه الله

ما عاد في صُبحه يوم فتى إلا وفي باقية رثاه

فهـو يـدعو عليـه بـالموت حتـى يـريح العبـاد منـه، إذ لا يعـود ولا يـزور أحـد صـباحا حتـى يكتـب لـه قصـيدة رثـاء مسـاء. فهـل وراء ذلـك شـؤم يتمنـى النـاس الخـلاص منـه. وكان يُقذع أحيانا في هجائه،حتى في الموت. ويقول في رثاء بعض خصومه:

لقد حسنت به اليوم المرائى كما حسنت به أمس الأهاجي

ولكن لج في شتم البرايا وكان القتلُ عاقبة اللجاج

وهـي شـماتة تـدل علـى أنـه كـان عـدواني المـزاج، ولـه رثـاء لاذع لـبعض المجـان، يقول فيه إن دنان الخمر وكئوسها وقيانها المغنيات يبكينه بكاء مرا.

أسامة[١] بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي، من أعلام بني منقذ أصحاب قلعة شيزر إلى شمال من حماة ومن علمائهم وفرسانهم. ولد لأبيه سنة٤٨٨ وقد عنى بتعليمه وتدريبه على الفروسية وأتقنها سريعا، ولقى- وهو شاب- في صيده أسدا فصرعته. ويقال إن أباه كان رجلا صالحا فترك إمارة القلعة لأخية سلطان ولم يكن له ولد، فتبنّى أسامة وأخذ يعدّه للإمارة بعده. وكان اسم عماد الدين زنكي قد أخذ في التألق منذ استيلائه على حلب سنة ٥٢٤ فالتحق هب أسامة وأبلى بلاء حسنا في حروبه ضد حملة الصليب، حتى إذا أغاروا على شيزر سنة ٥٣٢ عاد إليها مسرعا ودافع عنه دفاعاً مستميتا حتى ارتدوا على أعقابهن خاسئين. وبمقدار فرحه بالنصر كان حزنه على أبيه إذ علم أنه توفى في العام السابق لتلك المعركة. وصمم على المكث في مسقط رأسه لحمايته غير أن عمّه لم يتركه طويلا، فقد أمره هو وإخوته بالرحيل عن القلعة، فتفرقوا في البلاد. ومضى أساة إلى دمشق ولقبه حاكمها معين الدين أنر مدير دولة أولاد طُغتكين لقاء حسنا، وظل الجو بينهما صافيا حتى سنة ٥٣٩ إذ اكفهرّ الجو ولم يجد أسامة بُدا من مفارقة دمشق. فرحل إلى القاهرة ومعه أمه وزوجه وأبناؤه وأخوه محمد، وكان الخليفة الفاطمي حينئذ الحافظ (٥٣٤- ٥٤٤ هـ) فأكرمه ،أمر هل بإقطاع سنيّ عاش به حياة رغدة.

وخلف الحافظ ابنه الظافر (٥٤٤- ٥٤٩ هـ) واتصل إكرامه وإكرام وزيره العادل بن سلار لأسامة، ويقول المؤرخون إنه لم يف للعادل، فقد أوغر صدر عباس الصنهاجي ابن زوجته عليه فقتله وخلفه على الوزارة. ولم يلبث أن أوغر صدر عباس وابنه نصر على الخليفة الجديد الظافر فقتلاه. وتطورت الأمور فتوليّ الفائز بن الظافر

---

(١) أنظر في أسامة وعشر، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٠/٢ وعجم الأدباء ١٨٨/٥ و الخريدة (قسم الشام) ٤٩٩/١ و النجوم الزاهرة: الجزءين الخامس والسادس في مواضع متفرقة (انظر الفهرس) والبداية والنهاية لابن كثير ٣٣١/١٢ والسلوك للمقريزي ١٢٥/١ والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء (الطبعة الأولى بالقاهرة) ٢٧/٣ ومرآة الجنان ٤٢٨/٦ وشذرات الذهب ٢٧٩/٤ وديوانه طبع بالقاهرة. وراجع كتابه الاعتبار (نشر جامعة برنستون) وفيه معلومات كثيرة عن سيرته وحياته وطبع له في القاهرة لباب الآداب وكتاب المنازل والديار.

الخلافة وه وصبي يحبو في الخامسة من عمره، وكاتب أهل القصر طلائع بن رزيك الوالي بالصعيد، فقدم في جيش إلى القاهرة، وهرب عباس وابنه نصر وأسامة، وولوا وجوههم إلى الشام. وأسرعت أخت الظافر، فكتبت إلى حملة الصليب بعسقلان- وكانوا قد استولوا عليها حديثا- تعدهم بأموال طائلة إن هم ردوا إلى القاهرة الوزير وابنه نصرا، والتقوا بهم وواقعوهم، فُقتل عباس، ورُد نصر إلى القاهرة، وفرّ أسامة في نفر معه إلى دمشق. وحاول أسامة أن يوثق صلته بحاكمها الجديد نور الدين الذي استولى عليها في سنة قدومه سنة ٥٤٩، ويبدو أنه كسب حينئذ رضاه، وكاتب طلائع بن رزيك الوزير بمصر ليرسل إليه أسرته، فأرسلها بحرا غير أن سفينتها أصابها عطب في مياه عكا وكانت مع الصليبيين، فنهبوا كل ما كان مع الأسرة من مال ومتاع، وتجشمت الأسرة كثيراً من الصعاب حتى وصلت دمشق وكان لذلك أثر أليم في نفس أسامة.

ونزلت بأسامة ي سنة ٥٥٢ فاجعة أشد هولا، إذ دمرت الزلازل قلعة شيزر وأتت عليها ونزح عنها أهله وتشتوا في البلاد، وتملكها نور الدين خشية عليها من حملة الصليب، ويبدو أن أسامة كان يأمل أن يرد نور الدين الحصن عليه وعلى أسرته، ولعل ذلك ما جعله يقول فيه:

سلطانُنا زواهد والناس قد زهدوا له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش

أما أن أيام نور الدين البطل المغوار مدوّخ الصليبيين طاهرة فهذا صحيح إلى أقصى حد، وأما أن فيها الجوع والعطش فغير صحيح إذ فيها غنائم لا تحصى أخذت قهراً من حملة الصليب، وفيها غير بلد عربي رُد منهم إلى أهله. وقد شاكر هو نفسه نور الدين في بعض انتصاراته عليهم، وحضر معه حصاره لحصن حارم سنة ٥٥٩ للهجرة. وأدّته موجدته- في رأينا- من نور الدين إلى أن يبرح دمشق إلى حصن كيفا بالموصل ويتخذها دار مقام له، وفيها يعكف على جمع ديوانه وتأليف كتبه، حتى إذا استولى صلاح الدين على دمشق سنة ٥٧٠ استدعاه، ولبآه مبتهجا، فأعطاه دارا بدمشق وإقطاعا لمعاشه وفسح له في مجالسه، حتى إذا كانت سنة ٥٨٤ للهجرة لّبى نداء ربه عن ستة وتسعين عاما.

ورتب أسامة ديوانه على الموضوعات، فباب للغزل وباب للمديح وباب للشكوى وباب للفخر وباب للوصف إلى غير ذلك من أبواب، ولم يفرد للجهاد بابا وكأنه ترفع عنه إباء واحتشاما وحياء. وأهم أبواب شعره باب الفخر، إذ كان فارسا شجاعا، وشارك في حرب حملة الصليب منذ شبابه دفاعا عن مسقط رأسه، وجلّى في معارك عماد الدين زنكي ضدهم، وكأنه ظل طوال حياته شاهرا سيفه في وجوههم حتى بلغ السبعين، يقول:

لخمس عشرة نازلت الكُماة إلى ... أن شبت فيها وخير الخيل ما قرحا[١]

أخوضها كشهاب القذف مبتسما ... طلق المحيا ووجه الموت قد كلحا[٢]

بصارمٍ من رآه في قتام وغي ... أفرى به الهام ظن البرق قد لمحا[٣]

فسلْ كُماة الوغي عني لتعلم كم ... كربٍ كشفتُ وكم ضيقٍ بي انفسحا

فهو قد نازل كماة الحرب أو شجعانها منذ سنته الخامسة عشرة، وظل ينازلهم حتى اشتغل رأسه شيبا لا يهن ولا يضعف بل تشتد قواه كما تشتد قوى الخيل حين يعلو سنها وتصبح قارحة متتمة سنوات فحولتها. وإنه ليخوض أهوال الحرب كشهاب ساطع باسم الثغر متهلل الوجه وقد كشر الموت عن أنيابه. وإن سيفه ليلمع في غبار الحرب- وهو يحطم به الرءوس حطما- كبرق يسطع، وما من شجاع إلا وهو يعلم كثرة ما كشف من كرب وهموم في الحرب وكثرة ما انفسح له فيها من مضايق ومآزق. ومن قوله في تنكيله بحملة الصليب في غير موقعة:

كم قد أبدت بسيفي كل مفتخرٍ ... حامي الحقيقية يوم الجحفل اللجبِ [٤]

وكم تركت بني ألافرنج في رُعبٍ ... فصرتُ أدعى لديهم جالب الرعب

وكم جررت إليهم جحفلاً لجِباً ... بالسذابرية والمادذي واليلبِ [٥]

---

(١) الكماة: الشجعان. قرح الفرس: بلغ الخامسة من عمره.

(٢) طلق المحيا: مستبشر الوجه. كلح: عبس

(٣) قتام وغيّ: غبار حرب. أفرى الهام: أشق الرءوس.

(٤) حامي الحقيقة. حامي الحمى. الجحفل اللجب: الجيش الكثيف كثير الضجيج.

(٥) السابرية: الدرع المحكمة النسج. الماذي: السلاح. اليلب: الترس.

وهو يقول إنه كثيرا ما قضى قضاء مبرما على كل شجاع يفخر بشجاعته حاميا حمى أهله يوم النزال الطاحن. ويقول إنه كثيرا ما أنزل الرعب في قلوب حملة الصليب حتى سموه- جزعا- جالب الرعب، وكم قاد إليهم جيوشا غفيرة شاكية السلاح تقتلهم وتسفك دماءهم.ويقول:

سلْ بي كماة الوغي في كل معترك يضيقُ بالنفس فيه صدر ذي الباس

يُنبئوك بأني في مضايقها ثبت إذا الخوف هز الشاهق الراسي

فهو يجلي في المعارك حامية الوطيس التي تبلغ فيها الروح الحُلقوم ويرى الكماة فيها الموت نصب أعينهم، فإنه حينئذ يشق الجماجم ويدق الأعناق رابط الجأش ثابت الجنان حتى حين يهز الخوف والفزع الجبال الرواسي من الكماة العُتاة.

ولأسامة قصيدة نظمها على لسان نور الدين مفاخر معددا لانتصارات البطل على حملة الصليب وتمزيقه لصفوفهم وقد بلغت أكثر من تسعين بيتا وفيها يقول:

أبي اللهُ إلا أن يكون لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يُلهنا عنه السماعُ ولا الخمر

بنا أيد الإسلام وازداد عزة وذل لنا من بعد عزته الكفر

بنا استرجع اللهُ البلاد وأؤمن الـ عباد فلا خوفُ عليهم ولا قهر

وحقا كان نور الدين مفخرة للعصر في دك قلاع الصليبيين وحصونهم، وبه استرجع كثير من بلاد الشام وأمن فيها الناس، ووضع المكس أو الضرائب عن التجار وانتعشت الحياة وازداد الإسلام عزة. ونور الدين- بدون ريب- هو الذي هيأ لصلاح الدين حكم مصر وانتصاراته المدوية على الصليبيين واسترجاعه القدس الطاهر وتقليمه لأظافرهم. ويقول أسامة حين أقعدته سنواته السبعون عن الاشتراك في نزال الصليبيين ووهنت منه رجلاه وقواه، فلم يعد يستطيع ركوب الخيل ليكون له شرف النضال عن حمى وطنه:

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب

وكنت إن ثوب داعي الوغى لبيتهُ بالطعن والضرب [١]

أشق بالسيف دُجى نقعها شق الدياجي مُرسل الشهب [٢]

أنازل الأقران يُرديهم من قبل ضربي هامهم رُعبي [٣]

فقد وهن عظمه وضعفت منته، ولكن لا تزال روح قوية، وإنه ليذكر ماضي فروسيته المشرف وكيف أنه كان حين يدعو الداعي لحرب يبادر إليها يطعن ويضرب يمينا وشمالا يشق الرءوس في مثار النقع وغبار الحرب شق الشهب لحب الظلام فاتكا بالأقران، بل إن رعبهم منه ليفتك بهم قبل سيفه فتكا ذريعا.

ابن[٤] عُنين

هو محمد بن نصر بن الحسين المشهور باسم ابن عُنين، يرجع بنسبه إلى الأنصار، نزل أجداده الأولون الكوفة، وتركتها أسرته إلى زرع في حوران بالشام. وهاجر منها أحد أجداده الأُربين واستقر في دمشق، وفيها ولد لأبيه سنة ٥٤٩ للهجرة، وكان منزله جنوبي الجامع الأموي، فبعد أن حفظ القرآ، أخذ يختلف إلى شيوخه وفي مقدمتهم الحافظ أبو القاسم ببن عساكر. وكان فطنا ذكيا وسرعان ما جرى الشعر على لسانه وهو في السادسة عشرة من عمره. ولا نعرف الأسباب التي جعلته يتجه بشعره في بواكيه حياته إلى الهجاء، ربما كان عدوانيا بطبعه، ربما رجع ذلك إلى أنه نشأ في أسرة متواضعة، وأن أباه لم ينشأه على حب الخير والشعور بالمروءة والكرامة والرغبة في التسامي وطلب المعالي، وقد صرح بذلك في بعض شعره قائلاً فيه:

وجنبني أن أفعل الخير والد ضئيل إذا ما عُد أهل المناسب

بعيدُ عن الحسني قريب من الخنا وضيعُ مساعى الخير جم المعايب

إذا رمتُ أن أسمو صعوداً إلىالعلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

---

(١) ثوب: دعا

(٢) لنقع: غبار الحرب

(٣) يرديهم: يهلكهم

(٤) انظر في ابن عنين وشعر، ابن خلكان ١٤/٥ ومعجم الأدباء ٨١/١٩ والبداية والنهية لابن كثير ١٣٨/١٣ و النجوم الزاهرة ٢٩٣/٦ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ٢٦٤/٨، ٣٩٨، ٤٦١ ومفرج الكروب لابن واصل ٢٨٦/٢ والشذرات ١٤٠/٥ ومقدمة ديوانه لمحققه خليل مزنم (نشر صادر ببيروت).

ويبدو أنه أراد بهجائه للناس الانتقام لضعة أسرته وأبيه، ومن العجب أن صلاح الدين الأيوبي البطل المغوار الذي أذلّ حملة الصليب ودفع جموعهم إلى البحر المتوسط وما وراءه واستولى على بيت المقدس المعظم منهم وغيره. هذا البطل الذي احتل السويداء من أفئدة المسلمين حين استولى على دمشق وابن عنين في العشرين من عمره لم يبادر إلى مدحه، بل على العكس عمد إلى هجائه هجاء مقذعا هو ووزيره القاضي الفاضل وكاتبه عماد الدين الأصبهاني وغيرهما من كبار حاشيته ورجال وفيه يقول:

سلطانُنا أعرج وكاتبه ذو عمشٍ والوزير منحدب

وكان القاضي الفاضل أحدب وكان من خيرة الرجال وصفة الكتاب الشعراء كما كان سيوسا حاذقا بتدبير الدول. وذاعت لابن عُنين في دمشق قصيدة طويلة يقال إنها بلغت خمسمائة بيت سماها مقراض الأعراض، وضجّ الناس من لسانه وبهتانه، ورفعوا شكواهم منه إلى صلاح الدين، فأمر بنفيه عن دمشق، فمضى على وجهه يجوب البلاد من الشام إلى العراق والجزيرة وأذربيجان وخوارزم وخراسان وما وراء النهر وغزنة ودخل الهند. ثم رجل إلى اليمن وحاكمه من قبل صلاح الدين أخوه طُغتكين (٥٧٧- ٥٩٣ هـ) فوفد عليه، وقدم إلهي مدائحه فلقيه لقاء كريما وخفّ على قلبه فاتخذه نديما، وأخذ يكثر من مديحه وطُغتكين يكثر من عطائه، حتى أثرى، وكثر في يده المال، فرأى أن يستثمره، وتحول تاجرا يتردد بعروضه بين اليمن ومصر في العقد التاسع من القرن السادس.

وكان العزيز عثمان بن صلاح الدين ينوب عن أبيه بمصر حتى إذا توفيّ صلاح الدين سنة ٥٨٩ أصبح العزيز عثمان سلطانها، ونرى ابن عنين يشكو منه لمطالبته بدفع ضريبة عن عروض التجارة التي يحملها إلى مصر، ولا نعرف هل هذه الشكوى كانت في أيام نيابته عن أبيه أو في أيام سلطنته، وهو فيها يهجوه بالشحّ بينما يمدح عمه العزيز طُغتكين بالكرم، يقول:

ما كل من يتسمى بالعزيز له فضل ولا كل برق سحبه غدقه [1]

---

(١) غدقة: غزيرة المطر.

بين العزيزين بون في فعالهما هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وهو هجاء لاذع للعزيز عثمان إذ يجعله- لشدة شحه- شحاذا يأخذ الصدقة. ويبدو أنه ظل بمصر بعد وفاة العزيز طُغتكين سنة ٥٩٣ ومكث بها مدة انعقدت فيها صداقة بينه وبين شعرائها، يقول ابن خلكان: " اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها، ودخل في ذلك الوقت شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش". وتوفى العزيز عثمان سنة ٥٩٥ وتلوى بعده أخوه ألافضل وتطورت الظروف وتحول ملك صلاح الدين في مصر والشام إلى أخيه الملك العادل، فوليّ على مصر ابنه الكامل وعلى دمشق ابنه المعظم عيسى. وحنّ ابن عنين إلى العودة إلى دمشق فأخذ يستعطف العادل أن يعود إليها وأذن له في العودة ولزم ابنه المعظم عيسى (٥٩٧- ٦٢٤ هـ) يمدحه، وقربه منه واتخذه بأخرة من أيامه وزيراً له، حتى إذا توفى رثاه رثاء حارا. وأبقى له منزلته ابنه داود (٦٢٤- ٦٢٦) وخلفه الأشرف موسى فلزم بيته واصطلحت عليه الأمراض، وتوفى سنة ٦٣٠ عن ٨١ عاما.

والديوان موزع على أبواب المديح والرثاء والحنين إلى دمشق والوقائع والمحاضرات مما يتصل بظروفه والأحداث اليومية، ثم الدعابة والتهكم والسخرية والألغاز والهجاء.وألحق محقق الديوان بتلك الأبواب مستدركا بما عثر عليه من شعر انب عنين في كتب التاريخ والأدب. وهو في مقدمة شعراء دمش بزمنه إن لم يكن سابقهم المجليّ، إذ كانت ملكته الشعرية خصبة، غير أنه استغلها أكبر استغلال في الهجاء مما جعل صلاح الدين ينفيه- كما مر بنا- عن دمشق، وحتى من أكرموه كان يهجوهم غير مراع فيهم إلا ولا ذمة، إذ كن ما يلبث أن يعضّ أيديهم التي امتدت لإكرامه، من ذلك هجاؤه للسلطان العادل الذي فتح له أبواب دمشق، إذ ما لبث أن قال فيه بعد دخولها:

إن سُلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق

هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسوم والأرزاق

وكان العادل يلقب سيف الدين، وأنقذه من تشتته وضياعه في البلاد وردّه إلى دمشق حبيبة قلبه ومهوى فؤاده التي طالما تغني بالحنين إليها، ومع ذلك جزاه بالهجاء.

وحقا له فيه مدائح رائعة، ولكن كان ينبغي أن يرد شيطان هجائه عن الإلمام بساحته. وأكرمه المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق إكراما إلى أقصى حد حتى جعله نديمه ومؤنسه ووزيرة ومستشاره، ومع ذلك لم ينج من هجائه إذ يقول حين ولاه مع البها ابن أبي اليسر التنوخي أمر الرعية:

أرى ابن عُنين والبها مذ توليا على الناس ولي الخير عن كل مسلم
فوالله يا عيسي بمن شئت منهما لُعنت ولو كنت المسيح بن مريم

وحقا هجا نفسه معه، ولكن هذا لا يعفيه من قسمه له بأنه لُعن لتوليته هو وصاحبه. وهجا نفسه في ديوانه غير مرة، وكأنه يعيد لنا الحطيئة شاعر الهجاء القديم وهجاءه لنفسه، وأيضاً فإنه استعار منه- كما مرّ بنا- هجاءه لأبيه. وأهداه طبيب عيون- أو كما كانوا يقولون كحال- خروفاً هزيلاً جدا فكتب إليه أهجية طويلة يقول فيها:

أتاني خروف ما شككت بأنه حليف هوى قد شفه الهجر والعذل
إذا قام في شمس الظهيرة خلتهُ خيالا سرى في ظلمةٍ ماله ظل
فناشدته ما تشتهي قال قته وقاسمته ما شفه قال لي الأكل
وظل يراعيها بعين ضعيفة ويُنشدها والدمع في الخد منهلُ
أتتْ وحياضُ الموت بيني وبينها وجادتْ بوصلٍ حين لا ينفع الوصل

والبيت الأخير لأعرابي وضعه بدقة في موضعه من القطعة، وقد جعل الخروف الهزيل نِضو عشق شفه الهجر واللوم، ويقول كأنه خيال في ظلام ليس له ظل، وهي صورة بديعة ويستحلفه ما يشتهى فيقول قتة أو عشب يابس وأحضرها له، فظل يراعيها بعني ذابلة تشك أن تودع الحياة ودموعه منهلة على خدوده، فقد أتته وهو يكاد يلفظ أنفاسه. وجادت عليه بوصل لم يعد ينفعه فروحه في الحلقوم.

ويصور ابن عنين بخيلا شحيح النفس كان يدعو أصدقاءه مرة كل عام ضجرا متبرما، متمنيا أن لا تتكرر هذه الدعوة أبدا، ومُدت المائدة وأخذ الأصدقاء يتناولون الطعام، ويصفه ابن عنين حينئذ قائلاً:

عهدي به واليدُ اليمنى يكفُ بها غرب المجامع والأخرى على الكبدِ

يقول للخبز: لا يبعد مداك ولا أخنى عليك الذي أخنى على لُبد

ولبد آخر نسور لقمان في قصة مشهورة، وهذا الشحيح يستر غرب دمعه بيد ويضع الأخرى على كبده خشية تفتته داعيا لخبزه أن لا يأتي الدهر عليه كما أتى على لبد. وكان يهاجي رشيد الدين عبد الرحمن النابلسي ويزعم أنه صُفع وأنه معتاد دائما يقول:

تعجّب قوم لصفع الرشيد وذلك ما زال من دابه

رحمتُ انكسار قلوب النعال وقد دنسوها بأثوابه

فوالله ما صفعوه بها ولكنهم صفعوها بهِ

وله أهاج كثيرة في القاضي الفاضل وكبار رجال الدولة بدمشق وجها بذة قضاتها وشيوخها، وهو فيها أو على الأقل في بعضها يفحش إفحاشا شديدا، مما دفعنا إلى إخلاء هذا الكتاب منها، لا لفحشها فحسب: بل لأن ما يخلو منها من الفحش أيضا إنما هو افتراء وبهتان.

ابن[1] النحاس

هو فتح الله بن النحاس الحلبي المعروف باسم ابن النحاس اشتهر بطوافه في البلدان الشامية والمصرية والحجازية، كان جميل الصورة في صباه ومطالع شبابه، ثم أصيب بمرض بدّل محاسنه وزهده في الحياة، ونراه في شعره يرثي تلك الأيام أسفا محزوناً، ويقال إنه تزيّ بزي الزهاد ورحل عن بلده، ودخل دمشق فاستقبله أدباؤها وشعراؤها استقبالا كريما. وكان لهم مجالس يتطارحون فيها الشعر، وكانوا يجتمعون في نزه دمشق، ويتحاورون ويتحدثون ويذكرون كثيرا من الدعابات والفكاهات. وانعقدت صلة متينة بينه وبين ابن منجك الذي تحدثنا عنه بين شعراء المديح، وله فيه مدائح كثيرة. ورحل عن دمشق إلى القاهرة فوجد من أدبائها أهلا ومكانا طيبا، وهاجر منها

(١) انظر في ابن النحاس وشعره سلافة العصر ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٢٥٧/٣ ونفحة الريحانة ٥٠٧/٢ وديوان ابن النحاس النحاس مطبوع قديما في بيروت بالمطبعة الأنسية.

إلى مكة، وألقى عصا تسيارة بالمدينة إلى أن توفى سنة ١٠٥٢ للهجرة، ويقول فيه المحبي في كتابه: نفحة الريحانة: "أنا لا أجد عبارة تفي في حقه بالمدح فأرسلت اليراع وما يأتي به على الفتح، وناهيك بشاعر لم يطنّ مثل شعره في آذان الزمان، وساحرٍ إذا أشربت كلماته العقول استغنت عن الكئوس والندمان".

وابن النحاس شاعر مجيد، بالقياس إلى زمنه أيام العثمانيين، وشعره استنفده في المديح، ويكثر في مقدماته من الغزل، وقد يفزع إلى الفخر بمثل قوله:

ألا إن لي نفس الوقور وعفة الـ ... قدير وقلبي في المهمات قلبُ

وما كلُ معسول اللمي يستفزني ... ولا كل مطلوب دلى محبب [1]

وأحتملُ المكروه ممن يملني ... ولم ألو جيد الود عمن ينكب

إذا أنا لم أدفع عن النفس ضيمها ... فلا انجاب عنها من دُجا الضيم غيهب

ولا وطئت خد الفيافي ركائبي ... ولا سال حزن بالمطي وسبسب

وهو يقو عن نفسه إنه وقور عفيف قلب يحتال في قوة للأمور، ولا يستثيره جمال المرأة ولا يطلب ما يطلبه الناس، بل يطلب الأماني الكبار، ويحتمل الأذى ممن ينصرف عنه، ولا ينصرف عمن يُعرض عنه من الأودّاء الأصدقاء، ويدعو على نفسه إن لم يدفع الضيم الساقط عليه أن لا ينجاب عنه دجاه المظلم، وأن تهن قواه فلا تطأ الفيافي ركائبه ولا يسيل بهاه حزن من الأرض ولا مفازة. ويقول من قصيدة ثانية:

يا دهر مثلي لا يُقلـ ... ـقلُ عن سنام المجد جنبه

أنا لا أبالي إن رُمـ ... ـيت وسب عرضي من أسبه

العين يدميه الذبا ... بُ ويُعجز الآساد ذبه

ولتبر يعلوه الترا ... بُ وفضله باق ولبه

تكفي فتى العرفان خـ ... ـلانا فضائله وكتبه

وارقب خفوقي إن سكنـ ... ـت فعاصفي يُرجى مهبه

والبدرُ يشرق في المطالع ... بعد ما أخفاه غربه

---

(١) اللمى: سمرة حسنة في الشفة.

والروض يذبل ثم تُكـ سى النور والأوراق قُضبه

وهو يقول للدهر إن شيئا لا يستطيع أن يزعزعه عن مكانه من سنام المجد، وإنه ليرمى، ولا يهمه ما قد يلقى عليه من أذى السب والشتم، مثله في ذلك مثل العين يدميها الذباب وحتى الأسد لا تستطيع ذبه ولا دفعه ومثل التبر يعلوه التراب وتظل له قيمته ونفاسته. ويفتخر بفضائله ومعارفه، ويقول لخصمه: ترقب حركتي، فإني كعاصف ساكن لا يلبث أن يثور ويندفع وما مثلى إلا كمثل البدر يخفيه مغربه ولا يلبث أن تعم أضواؤه الآفاق، أو كمثل الروض تذبل أشجاره، حتى إذا كان الربيع كسى غصونه الأوراق والأزهار الأرجة. ويقول:

لا أقبل الضيم كيف أقبلهُ ؟ والمجدُ يأباه فيّ والحسبُ

والشمس صونا لضوء طلعتها قبل لحاق الظلام تحتجب

يقول إنه لا يقبل الضيم وكيف يقبله ومجد آبائه وعشيرته يستدير من حوله هالة منيرة تحول بينه وبين الرضا بالهوان. وإنه ليصون نفسه وخصالها الكريمة كما تصون الشمس ضوءها، بل إنها لتحتجب قبل أن يلحقها الظلام ويرخى الليل سدوله على الآفاق.

٣

شعراء المرائي والشكوى

المرائي قديمة في الشام منذ عصر فقلما كان يموت خليفة أموي إلا ويرثيه لشعراء من الشام والعراق والحجاز، ويدخل عصر الولاة ومنذ أواخر القرن الثاني تشارك الشام بقوة في الشعر العربي، ولا يلبث أبو تمام الدمشقي أن يحمل راية الشعر وزعامته لا في الشام وحدها بل أيضا في العالم العربي جميعه، وتحتل المرائي بابا كبيرا في ديوانه، ويخلفه تلميذه البحتري المنجي الحلبي المتوفى سنة ٢٨٤ للهجرة وتشغل المرائي حيزا كبيرا في شعره. ونلتقي في أوائل هذا العصر: عصر الدول والإمارات بكشاجم. وله رثاء في أبيه وأمه، وأروع من رثائه فيهما رثاء أبي فراس لأمه حين جاءه نعيها في أسر الروم، فأحس في عمق بفجيعته فيها وهو غائب عنها لا يملك إلا أن يذرف الدموع الحارة. وله مرثية بديعة في أخت له يقول فيها [1]:

أتزعم أنك خِدن الوفاء	وقد حجب الترب من قد حجب
فإن كنت تصدق فيما تقول	فمُت قبل موتك مع من تحب
وكنت أقيك إلى أن رمتك	يد الدهر من حيث لا أحتسب
فلا سلمت مقلة لم تسح	ولا بقيت لمة لم تب
ولو رد بالرزء ما تستحق	لما كان لي في حياتي أرب

وهو يتمنى لو غيب التراب مع شقيقته وصنو روحه حبا لها ووفاء، ويأسى لنفسه أنه لم يستطع أن يرد عنها سهام المنية التي أصابتها في الصميم تحت بصره، ولم يعد يملك لها إلا دموعا منهمرة ويتمنى أن لا يتوقف انهمارها، لعلها تشقي غلة نفسه وحرقة فؤاده ويقول لو أن الرزء فيها يرد إلى أخته الحياة لما كان له في حياته أرب ولقدم روحه فداء لها.

ولأبي العلاء مرثية رائعة لأمه، وكان قد بلغه نعيها وهو في طريقه إليها من العراق، ويقول في مطلعها انه سمع بداهية أصمت أذنه وصكت سمعه، ويأسى أن

---

(١) الديوان ٤١/٢.

تتقدمه إلى الموت، ويُعظم أن يرثيها بلفظ يمر بلسانه ويسلك مسالك الطعام، ويقول إن ألفاظ رثائه تحطم نواجذ أضراسه فضلا عن مقادم أسنانه، وينشد [١]:

ومن لي أن أصوغ الشهب شعرا فألبس قبرها سمطي نظام

مضت وقد اكتملت وخلت أني رضيع ما بلغت مدى الفطام

فيا ركب المنون أما رسول يبلغ روحها أرج السلام

ذكياً يُصحب الكافور منه بمثل المسك مفضوض الختام

وهو يكبرها عن أن يرثيها بألفاظ، إذ هي جديرة بأن يصوغ لها النجوم الساطعة عقود رثاء تزيد جدثها الطاهر، ويحس في عمق- وهو في سن الكهولة- كأن السنوات الطويلة التي فصلته عن صدر أمه من القصر ليست إلا أياما قصيرة إذ لا يزال يشعر كأنه رضيع فقد أمه، وهو في حاجة شديدة إلهيا، رضيع ضاع أي ضياع. ويتوسل إلى قوافل المنون التي تسرى في ليل الأبدية أن تحمل منه إلى أمه سلاما ذكيا عطرا ينتشر أريجه من حولها ويسطع سطوعا. ويقول الماهر الدمشقي المتوفى سنة ٤٥٢ في مرثية له [٢]:

برغمي أن أعنف فيك دهرا قليلا فكره بمعنفيه

وأن أرعى النجوم ولست فيها وأن أطا التراب وأنت فيه

ويقول الباخرزي تعليقا على البيتين: " هذا أرق ما يكون في المرائى، إذ يكاد يفجر عيون الأحجار، فتسيل بمدود الأنهار، بل بأمواج البحار".

وتنشب الحروب الصليبية، وفي بعض حملات آبق أمير دمشق على حملة الصليب سنة ٥٠١ يخون الحظ قائدا من قواده يسمى قول بن عثمان، فيقتله الصليبيون، ويبكيه ابن الخياط شاعر دمشق بمثل قوله [٣]:

ياللرجال لنازل لم يحتسب ولحادث ما كان بالمتوقع

---

(١) سقط الزند ١٤٥٩/٤

(٢) دمية القصر ١٥٨/١

(٣) ديوان ابن الخياط ص ٢١٣ و الخريدة بداية شعراء الشام ص ٢٠٩.

تالله ما جار الزمان ولا اعتدى بأشد من هذا المصاب وأوجع

ياقول قوله مكمد مستنزر ماء الشئون له ونار الأضلع

أشكو إلى الأيام فيك رزيتي لو تسمع الأيام شكوى موجع

صُل بعدها يا دهر أوفا فاكفف وخذ من شئت يا صرف المنية أودع

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة. وإن الشاعر ليستقل الدموع الغزار فيه وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمداً عليه، وليُنزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكفّ، فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة.

وتوفى نور الدين محمود سنة ٥٧٠ فاهتزت الشام لفقده هزة شدة، وفي رثائه يقول العماد الأصبهاني في إحدى مراثيه [١]:

يا ملكاً أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخرة

غاصت بحار الجود منذ غُيبت أنملك الفائضة الزاخرة

ملكت دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

وتوفى بعده صلاح الدين بدمشق، وكانت لوفاته أوائل سنة ٥٨٩ رنة حزن عميقة في جميع القلوب والديار لكثرة فتوحاته، وقد أزاح الصليبيين عن صدر الشام وافتتح بيت المقدس ولم يبق معهم إلا عكا وأنطاكية وبعض حصون وبلدان قليلة، وبكاه الشعراء وفي مقدمتهم عماد الدين الأصبهاني، وله فيه مرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي، وفيها يقول [٢]:

أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته

لا تحسبوه مات شخصا واحدا قد عمّ كل العالمين مماته

لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته

يا راعيا للدين حني تمكنت منه الذئاب وأسلمته رعاته

---

(١) الروضتين لأبي الشامة (طبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة) ٢٢٨/١.

(٢) انظر نهاية كتاب البرق الشامي للعماد والروضتين ٢١٥/٢ و النجوم الزاهرة ٦٠/٦.

فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوان رب العرش بل صلواته

وحقا حامي صلح الدين عن الإسلام حماية هائلة، عرضنا لها في حديثنا عن السياسة بالشام ومصر، حماية جعلته في الذروة من أبطال العرب الفاتحين، مع ما عمرّه من المدارس والمساجد في كل بلد بمصر والشام، ومع كثرة ما وقفه عليهما من أموال، ومع دولته الواسعة لم يخلف ملكا ولا دارا ولا بستانا ولا مزرعة، إنما خلف بطولة أحنى لها حملة الصليب رءوسهم.

ولا يكاد يتوفى حاكم طوال هذا العصر ولا وزير ولا عالم ولا قاض إلا ويرثيه الشعراء، من ذلك قول الشهاب محمود ابن صَصري قاضي دمشق لأكثر من عشرين عاما المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة [١]:

قاضي القضاة ومنن حوى رتبا سمت عن أن تسام سنا وبزت من سعى

شيخ الشيوخ العارفين ومن رقى رُتب السلوك تعبدا وتورعا

حاوى العلوم بما تفرق في الورى إلا الذي منها إليه تجمعا

وطبيعي أن يصفه بالتقوى والورع والعلوم الشرعية والفقه بها فقها دقيقا. ويقولون إنه كان يجمع بين الحسنيين: المعرفة بالمنقول والبراعة في المعقول أو ما يحتاج إلى عقل وفهم وقياس وبصيرة. ويلقانا رثاء كثير أيام العثمانيين، من ذلك قول أحمد بن محمد الحسني الحلبي المتوفى سنة ١٠٥٦ في رثاء أخيه [٢]:

رُزء ألم وحسرة تتوالى ومصيبة قد جذت الآمالا

وفراقُ إلف إن أردت تصبرا عنه أردت من الزمان محالا

كنا كغصنى دوحة قطع الردى منها الأغض الأرطب الميالا

أو كاليدين لذات شخص واحد كان اليمين لها وكنت شمالا

وكان وتر الشكوى من الدهر والممدوحين والناس مشدود في أحوال كثيرة إلى قيثارات الشعراء يلحنون عليه نوائب الدهر وتغافل الممدوحين وبؤس حظوظهم في

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٢٢/٩.

(٢) نفحة الريحانة للمحبي ٥٣٩٨/٢.

دنياهم وما يتجرّعون من صاب الدنيا وعلقمها المرير، وما يبلون في الناس من الطمع والحقد والأنانية مما يوهي العلاقات حتى بين الأقرباء، ويملأ النفوس شقاء وعناء والقلوب حسرات ولوعات، من ذلك قول أبي فراس [١]:

أراني وقومي فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا في الأصول المناسب

فأقصاهم أقصاهم من مساءتي وأقربهم مما كرهت الأقارب

غريب وأهلي حيثما كرّ ناظري وحيد وحولي من رجالي عصائب

وأعظم أعداء الرجال ثقاتها وأهون من عاديته من تحاربُ

وهو يصور المحنة في الناس حوله، فهم جميعا قومه يرجعون إلى أصل واحد ونسب واحد، وأقربهم منه لا يحبون له الخير، ويحبه له البعداء، مما يجعله يشعر في عمق بالغربة بين أهله وذويه وعصاباته، ويهوله ذلك ويقلقه ويفزعه. وإنه ليوغل في فهم الناس فيشعر بغير قليل من قلق النفس وضيق الصدر، فإن من يصادقك إنما يصادقك على الخداع، وهو لذلك ليس صديقا بل هو أعظم أعدائك لأنك تأمنه وتجعله محل ثقتك، وهو لا يريد لك خيرا بل يريد لك الشر والأذى، وهو لذلك أعدى أعدائك، أما العدو الحقيقي فأنت تعالنه العداوة وتجاهرة والخصومة، فلن يصيبك منه أذى لأنك محترس منه دائما متق شره وخيانته وغدره. ويخاطب أبو العلاء الدهر بقوله [٢]:

يا دهر يا منجز إبعاده ومخلف المأمول من وعده

أي جديد لك لم تبله وأي أقرانك لم ترده

تستأثر العقبان في جوها وتنزل الأعصم من فنده [٣]

إن زماني برزاياه لي صيرني أمرح في قده [٤]

أفضل ما في النفس يغتالها فنستعيذ الله من جنده

ورب ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم في ورده

---

(١) ديوان أبي فراس ٢٠/٢.

(٢) سقط الزند ١٠١٢/٢

(٣) الأعصم: الوعل، الفند: قمة الجبل

(٤) القد: ما يُقد من الجلد ويشتد به الأسير.

وهو يشكو من الدهر وأنه ينجز دائما الإيعاد والإنذار بالشرور والخطوب، ويخلف دائماً الوعد بالخيرات والطيبات، وإنه ليأتي دائما على كل جديد وكل قرن يدعى أنه يماثله في القوة أو الشجاعة، فالكل أسراه: العقبان في أجوائها العليا والعُصم أو الوعول في أعالي الجبال، فلا أحد ينجو من صولته. ويقول إنه ألف رزاياه ونكباته حتى صارت قدا أو قيداً له ولحياته، وصار من طول ألفته لها يستحبها ويمرح فيها. ويعجب أن يكون أفضل ما في النفس من حواس البصر والسمع وغيرهما يغتاله أو يهلكه ما سُلط عليه من آفات الهوى، ويجعلها كأنها جنود لله إذ تنتقم له من الإنسان بسوء سلوكه وأعماله. وهو لذلك يستعيذ من شرها، ويقول رب ظامئ إلى مورد يريد أن ينهل منه، فيكون فيه هلاكه؟ ويقول أسامه بن منقذ [١]:

حذرتني تجاربي صحبة العا ... لم حتى كرهت صحبة ظلي

ليس فيهم خل إذا ناب خطب ... قلت مالي لدفعه غير خلي

كلهم يبذل الوداد لدى اليُسر ... ولكنهم عدى للمقل

فاعتزلهم ففي انفرادك منهم ... راحة اليأس من حذار وذُل

وقد بلغ أسامة من ابتلائه للناس واختبارهم أن أصبح يمقتهم ويمقت كل ما في العالم حتى ظله يكره أن يصحبه خوفا أن يكون فيها ما في الناس من عدم الوفاء وخيانة الصحبة. ويقول إنه ليس في الناس خل صادق العهد في النعماء والبأساء، بل إذا نابت ضراء لم يسعفك ولم يساعدك، إنما يعرفك في اليُسر، أما في العسر فلا يودّك ولا يعرف لك طولا ولا فضلك ولا يسدُ لك ثلمة ولا يقدم لك عونان، فاعتزل الناس وايأس من أن يردّوا لك معروفا أو جميلا تعش آمنا عزيزاً.

ويقول ابن عُنين في التشوق إلى دمشق بعد أن ظل منفيا عنها طويلا شاكيا محزونا لغربته وما لقى فيها من ضنك العيش بعد أن طوف في العراق وإيران وخراسان والهند واليمن [٢]:

فسقى دمشق ووابيها والحمى ... متواصل الإرعاد منفصم العرى

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٢٥/١.

(٢) ديوان ابن عنين ص ٤.

فارقتها لا عن رضى وهجرتها لا عن قلى ورحلت لا متخيراً
أسعى لرزق في البلاد مشتت ومن العجائب أن يكون مقتراً
لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفنى يصافحه الكرى

فهو يدعو لدمشق- وكان يكثر من الحنين إليها- أن يسقيها سحاب متواصل الإرعاد أو الإمطار، منفصم العرى واهيه يهطل مدرارا. ويقول إنه برغمه فارقها قسرا، وهو إنما فراقها لهجوه أهلها وإفحاشه في هجوه. ويقول إنه جاب البلاد يسعى لرزقه فكان لا يصيب منه إلا الكفاف وإلا ما يسدّ رمقه، فرزقه دائماً مقتر أو قليل، وعيشته دائما نكدة، وهواه معلق دائما بدمشق ودائماً مسهد لا يلم بجفونه الكرى أو النوم لما ملكت عليه من شغاف قلبه.

وكان شعراء الشام وأدباؤه كثيرا ما ينزلون القاهرة في عهد الأيوبيين والمماليك ويحنّون إلى الشام وبلدانه ورياضها الفيحاء شاكين من الغربة وأن عيونهم لا تكتحل بمنظر وطنهم ومشاهده الجميلة، فضلا عن رؤية الأهل والأصدقاء. ونزل القاهرة ابن حجة الحموي صاحب خزانة الأدب المتوفى سنة ٨٣٧ وكان أحد ندماء السلطان المؤيد وولي عدة وظائف لعهده، ويقول متشوقا إلى بلدته حماة شاكيا غربته وطول فراقه لأهله (١):

يا ساكني مغني حماة وحقكم من بعدكم ما ذقت عيشا طيبا
أرض رضعت بها ثُدى شبيبتي ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
وقد التفت إليك يا دهري بطو ل تعتبي ويحقّ لي أن أعتبا
قررت لي طول الشتات وظيفة وجعلت دمعي في الخدود مرتباً

وهو يشكو من غربته عن ملاعب صباه وشبابه وديار أحبائه في حماة مسقط رأسه، ويعاتب الدهر الذي قضى عليه بفراقها وطول تشته بعيدا عن قرة عينه، وإنه ليبكيها بدموع غزار. ولذلك عاد إلى حماة بمجرد أن توفى السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة.

---

(١) خزانة الأدب ص ٤٠

وتظل الشكوى من الزمان والناس طوال العصر، ومرت بنا ترجمة لحسين بن الجزري أيام العثمانيين، وله يشكو شكوى مرة من الناس منشدا [١]:

قد صرت أحترز الأنام وغدرهم إن الطبيب يخاف مس الداء

وقطعت باليأس الرجاء لديهم واليأس يجدع أنف كل رجاء

ولطالما أصفيت قبلك خلتي من لا أراه موافقا لإخالي

وبلوت منه وده فرأيته متلونا كتلون الحرباء

لقد جرب الناس طويلا فرآهم غادرين ماكرين لا يصونون عهدا ولا يحفظون ودا، فئ منهم يأسا لا يداخله أي رجاء، يأسا لا أمل معه في وفاء ولا ما يشبه الوفاء، فقد طالت تجربته وطال اختباره ورجع دائما خائبا بل رجع شاعرا بمرارة، لرؤيته الصديق وقد تلون ألوانا كألوان الحرباء، إذ تتلون في ساعات النهار ألوانا مختلفة. فاتخذ منها مثلا لتلونه. ونقف قليلا بإزاء نفر من شعراء الشكوى والرثاء.

ابن سنان[٢] الخفاجي

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي تلميذ أبي العلاء المرعي، وكان يتشيح وأنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع شعرا شيعيا، ولا نعرف تاريخ ميلاده. ويبدو أنه أحب خوض معمان السياسة إذ نراه في حاشية محمود بن نصر بن صالح حين صار إليه أمر حلب سنة ٤٥٢ وقد بعث به رسولا إلى صاحب القسطنطينية ملك الروم يستنجد به على عمه عطية بن صالح، وظل عندهم مدة وكتب إلى أهل حلب قصيدته المعروفة:

هذا كتابي عن كمال سلامة عندي وحالٍ شرحها في الجملة

هم وإقتار وعمر ذاهب وفراق أوطان وبعُد أحبه

---

(١) ريحانة الألبا ١/١٢٤ .

(٢) انظر في ابن سنان الخفاجي وشعر، زبدة لحلب من تاريخ حلب لابن العديم، الجزءين الأول والثاني (انظر الفهرس) و فوات الوفيات ١/٤٨٩ النجوم الزاهرة ٥/٩٦ وكتابنا البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١٥٢. وديوانه مطبوع بالمطبعة الأنسية ببيروت.

وعاد إلى حلب في عهد أميرها مثال بن صالح سنة ٤٥٣ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه عطية واستولى عليها من ابن أخيه محمود بن نصر سنة ٤٥٤ ورأى أن يولي في كل قلعة من قلاع إماراته حلبيا بحيث تكون ذريته وأبناؤه تحت يده. وطلب من وزيره ابن أبي الثريا أن يختار له من يوليه " عزاز" فقال: لا أجد لذلك إلا أبا محمد بن سنان الخفاجي وكان أبو نصر بن النحاس حاضرا فصّوب الرأي فيه، فأحضره محمود، وولاه قلعة عزاز بعد أن امتنع وأخيرا أجاب. وبعد سنوات خشيه ابن سنان على نفسه واستوحش منه، فاستدعاه محمود مرارا إلى حلب وابن سنان يتعلل عليه ولا يحضر، وكان أبو نصر بن النحاس صديقه فكان يكتب إليه يحذره. ومع ذلك اضطر- بأمر محمود- أن يحمل إليه طعاما مسموما وكان ذلك سبب موت ابن سنان سنة ٤٦٦ ويقال إنه لما أحسّ بالموت أنشد.

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تجريب

وكان مثقفا ثقافة أدبية وبلاغية علمية كما يتبين من وضعه لكتاب سر الفصاحة، وهو كتاب نفيس، وديوانه مطبوع قديما، ويكثر الرثاء فيه وهو يفتتحه بمرثية في الكاتب علي بن محمد بن عيسى العمري، وكان عطية بن صالح يضطغن عليه لوقوفه مع محمود بن نصر في حصاره لحلب فقتله وصلبه، وفي رثاء ابن سنان له يقول:

ومعذل جار على غلوائه يروى حديث نداه عن أعدائه
عجلت عليه يد الحمام وعوده ريان من خمر الشباب ومائه
عجبا لحد السيف كيف أصابه ومضاؤه في الروع دون مضائه
ولمصعب ملأ الزمان هديره قادوه بعد شماسه وإبائه
إن يرفعون فقد غنوا بعلائه أو يشهروه فقد كفوا بثنائه

وابن سنان يؤبن صديقه تأبينا حزينا قائلا: إنه كان بحرا فياضا في الجود وطالما كان الناس يلومونه ويروون أحاديث كرمه الذي شهد به أعداؤه. ويقول إن الموت اختطفه شابا غضا نضرا، ويعجب كيف أصابه السيف وعزمه في الحرب وسفك الدماء أقوى من عزمه. وقد كان صعب القياد يهدر هدير الفحول ويزأر زئير الأسود. ويقول

إن كانوا قد رفعوه في الصلب، فقد أغناهم علاؤه في السماكين، وإن كانوا قد شهروا به فقد امتلأت الدنيا بالثناء عليه.

وقال يرثى جماعة من أهله وأصدقائه:

أيها الظاعنون لا زال للغيث رواح عليكم وبكور

لست أرضى بالدمع فيكم فهل يمـ لك ري البحور إلا البحور

قد رأينا دياركم وعليها أثر من عفاتكم مهجور

عرصات كأنهن ليالٍ فارقتها عند الكمال البدور

بان ذل الأسى عليها فللغيـ ثِ بكاء وللنسيم زفير

يا نجوم العلا غربتم وما في الليل من بعدكم نجوم تغور

وهو يدعو لأجداثهم أن تظل تمطرها الحسب في البكور والرواح بل حري أن تروح البحور من فيها من بحور الكرم. ويقل إنه مرّ بالديار فرأى آثار العفاة أو طلاب النوال قد هُجرت منذ مات أصحابها، وقد أظلمت عرصاتها وساحاتها بمغيب بدورها، وبدا ذل الأسى والحزن عليها والسحب تبك بدمع مدرار، وللرياح زفير وشهيق. ويقول لقد غربت نجومكم وما أظن بعدها في الليل نجوم تغور في سماء المجد والعلاء. وقال يرثى والدته حين توفيت بعد قدومها من حج بيت الله:

أبكيك لو نهضت بحقك أدمع وأقول لو أن النوائب تسمعُ

لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لموعدُ

قبحاً ليومك فالنوائب بعده جلل وكل رزية لا تفجع (١)

لو كان ينفعني السلو نبذته أسفاً عليك فكيف إذ لا ينفع

عجباً لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع

ولغافل ويرى بكل ثنية ملقى له بطن الصفائح مضجع (٢)

يا قبر فيك الصالحات دفينة أفما تضيق بهن أو تتصدع

---

(١) جلل: ياتي بمعنى عظيم وبمعنى صغير حقير فاللفظة من ألفاظ الأضداد.

(٢) الثنية: الطريق والعطفة فيه. الصفائح جمع صفيحة وهي العريض من الحجارة والألواح.

وهو يقول إن أي دموع له لا تفي بحقوق أمه عليه وأي أنين له لا تسمعه النوائب، ويقول إ، أحد لا يغبط على بقائه، فما تلبث رحى الموت أن تطحن الباقين المودعين. وما أقبح اليوم الذي سمعه فيه رزء أمه. فالنوائب بعده صغيرة والرزايا لا تفجعه، ولو ينفعه السلو لسلا، ولكنه لا ينفع أي نفع. ويعجب لمن يجمع المال وعما قليل يضيع، وللغافل عن الموت وفي كل عطفة بطريق من طرقه مضجع معّد له: حفرة وصفائحها من الحجارة. ويلتفت إلى قبر أمه ويعجب أنه لا يتصدع وفيه هذه الأم الكريمة. وفي ديون ابن سنان وراء ذلك مدائح وغزليات وفيه عظات بديعة.

الغزي[1]

هو إبراهيم بن يحيي بن عثمان الكلبي الغزيّ، ولد بغزّة في فلسطين سنة ٤٤١ للهجرة وبها نشأ وتعلم، وسال الشعر على لسانه، حتى إذا بلغ من عمره أربعين عاما دخل دمشق وسمع من شيوخها، ثم رحل إلى بغداد أقام بها في المدرسة النظامية سنن كثيرة، ومدح ورثى غير مدرس، ثم مضى إلى إيران وخراسان وامتد بهما جماعة من الحكام والرؤساء. ويقول العماد الأصبهاني في الخريدة. جاب البلاد وتغرّب، وأكثر التنقل والحركة وتغلغل في أقطار كرمان بفارس وأقطار خراسان. ومن مداحه ناصر الدين مُكرم بن العلاء وزير كرمان، وعماد الدين طاهر قاضي القضاة بشيراز، ثم أوغل شرقا متنقلا بين الحكام والقضاة والوزراء إلى أن توفى سنة ٥٢٤ بين مرو وبلخ بخراسان، ونقل جثمانه إلى بلح ودُفن بها عن ثلاثة وثمانين عاما.

وكان شاعرا بارعا وأكثر شعره في المديح. وله غزل بديع أنشدنا منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل، ويبث في أشعاره شكوى كثيرة، إذ كان يحس دائما بغربته وأنه لا يأخذ من الدنيا ما يأمله. شاعرا بأن سوق الآداب كسدت وأن الأجواد المؤملين قلوا في البلاد، وفي ذلك يقول:

قالوا هجرت الشعر؟ قلت ضرورة ... باب الدواعي والبواعث مُغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى ... منه النوالُ ولا مليح يُعشق

ومن العجائب أنه لا يُشترى ... ويُخان فيه– مع الكساد– ويُسرق

---

(١) انظر في الغزي وشعر الخريدة (قسم الشام) ٣/١ وما بعدها وابن خلكان ٥٧/١ و النجوم الزاهرة ٢٣٥/٥.

وهـو لا يشـكو مـن كسـاد الشـعر فحسـب. بـل يشـكو أيضـا مـن أنـه يسـرق، وبـاب السـرقات الشـعرية فـي النقـد العربـي بـاب واسـع. ويقـول العمـاد تعليقـا علـى هـذه الأبيـات: " الغـزي حسـن المغـزى ومـا يعـزّ مـن المعـاني إلا إليـهُ عـزى، يُعنـى بـالمعنى ويحكـم منـه المبنـى، ويودعـه اللفـظ إيـداع الـدرّ الصـدف، والبـدر السـدُف" ويـورد طائفـة مـن روائـع أبياتـه منها قوله:

إني لأشكو خطوباً لا أعينها ليبرا الناسُ من لومي ومن عذلي

كالشمع يبكي ولا يُدري أعبرته من صحبة النار أم من فُرقة العسل

فخطوبـه كثيـرة بحيـث لا يسـتطيع أن يعـين منهـا خطبـا دون خطـب ولا أن يعلـل لخطـب دون خطـب، فمثلـه كالشـمع لا يعـرف هـل يبكـي مـن فرقـة الرحيـق أو مـن صـحبة الحريق. ويقول شاكيا ضجرا من الأيام:

حملنا من الأيام مالا نُطيقه كما حمل العظم الكسير العصائبا

وليلٍ رجونا أن يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

فلا تحمد الأيام فيما تفُيده فما كان منها كاسيا كان سالبا

والصـور فـي الأبيـات بديعـة، فقـد حمـل مـن الأيـام خطوبـا جعلتـه أشـبه مـا يكـون بعظـم كسـير شُـدت عليـه العصـائب وهـو يتضـور ألمـا، ويصـور قصـر الليـل فمـا اخـتط عـذاره الأسـود حتـى أسـرع إليـه الشـيب. ويقـول لا تحمـد الأيـام فيمـا تحملـه إليـك مـن نفـع فإنهـا تنفـث فيـه سـمومها، وكـل مـا تظنـه منهـا كاسـيا يسـلبك الكسـاء المظنـون، فـإذا بـك تعـرى حرمانا وابتئاسا. ويقول:

الحظ من جوهر الأشياء سله ولا تسأل من الله قدا زانه الهيف

فالقوس في قبضة الرامي لعزتها والسهم من هونه يرمى به الهدف

لم يبق لي زمني شيئا أسر به فالحمد لله لافوز ولا أسف

عرى أكابره من ثوب محمدةٍ فالقوم في السابغات اللبس الكُشف

لم يقنعوا بحجاب البُخل فاحتجبوا كما غلا بعد سوء الكيلة الحشف

وإن جرى غلط منه بمكرمة فبيضة العقر لا يرجى لها خلف

أعجب بهم قط في الآراء ما اتفقوا على صوابٍ وفي التقصير ما اختلفوا

فهو يشكو حظه التعس وأن الإنسان حري أن يطلبه من ربه لا أن يسأل حبا وما يشبه الحب فالحظ مدار الحياة وقطبها، يرفع الأدنى ويخفض الأعلى، وما أشبه الغزي بقوس عزيز في قبضة الرامي تصوب منه السهام الهينة فتصيب الهدف، ألا ما أتعس الحياة!. ويقول إن الزمن قضى على كل ما يدخل على نفسه السرور، فلم يعد هناك شئ ينتظر أن يظفر به أو يأسف على ضياعه. ويقول إن الزمن عرّى أكابره من ثياب المحامد، وهم إن بدوا كاسين فحقيقتهم عارون مجردون من كل محمدة، وكأنما لم يكفهم حجاب البخل فاحتجبوا عن الناس جامعين بين سوءتين، كما يجمع بائع التمر بين حشفه أو أردئه وسوء كيله أو ميزانه.وإن غلط أحدهم وجاء بشيء كان ذلك بيضة العُقر التي لا تبيض الدجاجة بعدها. ومن عجب أنم لا يتفقون في الرأى على شئ سوى ما كان من بخلهم وشح نفوسهم، يقول:

وجف الناس حتى لو بكينا تعذر ما تبل به الجفون

فما يندى لممدوح بنان ولا يندى لمهجو جبين

فالناس قد جفوا بعد خصب وإيناع وورد وريحان حتى لو بكى الباكون ما وجدوا دموعا تبلّ جفونهم، إذ لم يعد هناك ممدوح ينادى بنانه، ويغدق على الناس نواله، وأيضاً لم يعد مهجو بخيل يندى جبينه خجلا وكسوفا. ويقول:

حبلُ المنى مثل حبل الشمس متصلا يرى وإن كان عند اللمس مبتوتا

فلا تقل ليت صرف الدهر ساعدني فإن في ليت أوماً يقطع الليتا [١]

والصورة في البيت الأول بديعة، فحبل المنى كحبل الشمس مبتوت غير موصول، فلا تقل أحداث الدهر ساعدتني فإن في ليت أوما أو عطش شديداً دون ريه انبتات الليت أو صفحة العنق. فداع المنى والتمني فإنهما يتعبان ولا يثمران شيئا. ووراء هذه الشكوى من الزمن والناس في شعر الغزي والمدائح وغزليات- كما قلنا- رائعة، وهو

(١) أوما: عطشا شديدا. اللّيت: صفحة العنق.

ديـوان كبيـر جمعـه بنفســه فـي نحـو خمســة آلاف بيـت، ومنــه نســخ كثيـرة فــي مكتبـات العالم.

فتيان[١] الشاغوري

هو فتيان بن علي الأسدي الشاغوري ولد في أوائل العقد الرابع من القرن السادس الهجري ببانياس على ساحل حمصن وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق، وسكن الشاغور إحدى ضواحيها حينئذ وهي الآن من أحيائها، وألحقه بكتاب حفظ فيه القرآن، حتى إذا أتم حفظه أكبّ- مثل لداته- على دروس الشيوخ اللغوية والشرعية في الجامع الأموي، وحين أتقن العربية وعلومها فكر في أن يصبح معلما لها، يعلمها الناشئة ويدربهم عليها. واختار قرية الزبداني بالقرب من دمشق مقاما له لجمال الطبيعة فيها، فسكنها واتخذ لنفسه كتّابا يعلم فيه الناشئة، وله في هذه القرية أشعار بديعة تصور مفاتن الطبيعة فيها. ومنذ أخذ صلاح الدين في أواسط العقد الثامن من القرن بواقع الصليبين ويسحقهم بجيشه المظفر نراه مثل غيره من شعراء الشام يشيد به وبانتصاراته في مدائح كثيرة. وكان صلاح الدين قد أعطى ابنه الأفضل نور الدين دمشق منذ سنة ٥٨٢ وظل بها بعد وفاة أبيه حتى سنة ٥٩٢، واتخذ الأفضل مودود بن المبارك- وهو أخو عز الدين فرّخشاه ابن عم الأفضل لأمه- شحنة دمشق أو بعبارة أخرى ضابطا لشئونها ومصرفاً لها. ويلتحق فتيان بخدمة مودود. ويقول مترجموه إنه اتخذ له حلقة لتعليم العربية بالجامع الأموي. ونظن ظنا أنه ابتدأها في أثناء تلك الخدمة أي منذ العقد التاسع من القرن السادس، إن لم يكن بعد هذا التاريخ.

وكان فتيان يمدح بجانب صلاح الدين بعض قواده وكاتبه عماد الدين الأصبهاني والأفضل نور الدين وأخاه غازي صاحب حلب منذ أعطاها له أبوه سنة ٥٨٢ حتى وفاته سنة ٦١٣. أما مودود بن المبارك فله فيه أكثر من عشرين قصيدة، ويقول مترجموه إنه عهد إليه- فيما عهد بتعليم أولاده الخط والعربية. ونراه حين أصبح العادل مالك زمام الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين يخصه ببعض مدائحه ويكثر من مديح وزيره المصري صفي الدين بن شكر، ويبدو أنه كان يرسل إليه بمدائحه، لأنه لم يغادر الشام طوال حياته. وكان العادل قد جعل دمشق لابنه المعظم عيسى، وله فيه عشر مدائح، كما أعطى العادل ابنه الأشرف موسى الرها والجزيرة وله فيه نحو خمس

---

(١) انظر في فتيان الشاغوري وشعره، الخريدة (قسم الشام) ٢٤٧/١ وابن خلكان ٢٤/٤ و النجوم الزاهرة ٢٧٤/٦ ومطالعب البدور للغزولي ٢٨/١ والشذرات ٦٣/٣. وديوانه طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق بتحقيق أحمد الجندي وتقديمه.

عشرة مدحة. ومدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم صاحب حماة تقي الدين عمر (٥٧٤- ٥٨٧ هـ) أعطاها له عمه صلاح الدين، مدح صاحب بعلبك فروخشاه (٥٧٥- ٥٧٨ هـ) وابنه بهرام شاه (٥٧٨- ٦٢٧ هـ). وعلى هذا النحو ظل يقدم مدائحه للأيوبيين حتى وفاته بدمشق سنة ٦١٥. وقد أنشدنا له في حديثنا عن شعراء التشيع أشعارا تدل بوضوح على تشيعه. وطبيعي- وهو شاعر مدح كبيرـ أن تكون له مرائي لممن لبى نداء ربه من ممدوحيه، وخاصة من كان وثيق الصلة بهم، وكذلك لكبار رجال زمنه وشيوخه وعلمائه الأعلام. ومن أروع مراثيه مرثيته لشيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١، ويقول العماد الأصبهاني إنها مشتملة على حقيقة الشيخ وطريقته ووفائه ووفاته، وفيها يقول:

أي ركن وهي من العلماء ... أي نجم هوى من العلياء

إن رزء الإسلام بالحافظ العا ... لم أمسى من أعظم الأراء

أقفزت بعده ربوع الأحادي ... ث وأقوت معالم الأنباء

كان من أعلم الأنام بأسما ... ء رجال الحديث والعلماء

كان علامة ونسابة لم ... يخف عنه شئ من الأشياء

أنت أعلى من أن تُحد بوصف ... بلغته بلاغة البلغاء

وفتيان في المرثية محزون الفؤاد مكبر لفجيعة دمشق في محدّثها الذي لا يبارى ومؤرخها الذي لا يحارى. وهو في البيت الثاني يصور في ألم إقفار المدرسة النورية من محدثها الأكبر وإقواء أو إقفار دمشق من مؤرخها العظيم صاحب تاريخها الذي يقال إنه كان يقع في ثمانين مجلدا. وحقا كن من أعلم علماء عصره- إن لم يكمن أعلمهم- بالحديث النبوي ورجاله وبتاريخ دمشق وأعلامها من مختلف الأجيال، مع الحلم ومع التقوى والورع، ومع ما ألقى عليه من محبة أهل زمنه وإجلالهم.

ويتوفى بعده في السنة التالية القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن الشهرزوري وكان قد ولى القضاء لعماد الدين زنكي في الموصل، وتوفّي فالتحق بابنه نور الدين فولاّه القضاء في دمشق وارتقى عنده إلى درجة الوزارة، وأقرّه صلاح الدين

بعد وفاة نور الدين على عمله ومنصبه، ولم يلبث أن توفى. وفيه يقول فتيان من مرثية طويلة:

عدم الإسلام معدوم المثال وهوت من أوجها شمس المعالي

ولسان الشرع قد ألبس عبا بعد ا كان جريئا في المقال

وسماء الدين قد ران على بدرها النقصان من بعد الكمال

والقضايا قاضيات نحبها إثره حزناً على تلك الخلال

مات من كان لأهل العلم كهفا ومثالا مُحسنا أي ثمال [١]

وهو يبكى الإسلام والقضاء وعلوم الشريعة فيه، إذ كان له القضاء والفتوى كما كان له الفقه والشريعة، وكانت له فضائل كثيرة بجانب علمه وفقهه، إذ كان جوادا وغيثا مدرارا، كما كان مرجعا للعلماء- كما يقول فتيان- وثمالا وسندا لههم. ويتوّفى تقي الدين عمر صاحب حماة فيؤبنه بمرثية يقول فيها:

أباح ثغور الكفر بالسيف عنوة وسد ثغور السلم بالطعن في الثغر

وكيف يُلام المسلمون على الأسى وقد عدم الإسلام ناصره عمر

لقد كان يلقى المرهفات بوجهه وسمر القنا بالصدر في الورد والصدر [٢]

وكان يرُد الجحفل المجر وحده يمسون بالأيدي الظهور من الخور [٣]

وهو يشيد ببسالته في حرب حملة الصليب ويصور حزن المسلمين عليه، إذ خسروا فيه بطلا من أبطالهم طالما دوّخ الصليبيين، وطالما نازلهم راميا بنفسه في أتون الحرب مقبلا دائما معرضا وجهه للسيوف وصدره للرماح، وكم ردّ من جحافلهم الكثيرة وولوا أدبارهم فزعين مروّعين. ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب، فيؤبنه بمثل قوله:

لئن كان خلق الخلقِ من طين آدم فمن نور خلق الله خلقك يا غازي

---

(١) الثمال: الملجأ والغيث.

(٢) المرهفات: السيوف. القنا: الرماح

(٣) المجر: الكثيف

فمن لليتامى والأرامل بعده يقوم بإكرام عليهم وإعزاز

مضى ملكه المحروس من عيب عائب ومن عبث الزاري ومن عنت الرازي

وكان الغازي مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العاري ويطعم الجائع عالي الهمة حسن التدبير والسياسة، محبا للعلماء، مجزلا العطاء للشعراء، فحمى ملكه- كما يقول فتيان- من عيب العائب وزراية المزرى وعنت الرازي أو الممتحن المختبر.

ولفتيان بجانب مراثيه شكوى مريرة من الدهر والناس والحظ المقسوم عليه كقوله:

علام تحركي والحظ ساكن وما نهنهت في طلب ولكن

أرى نذلا تقدمه المساوي على حُر تؤخره المحاسن

وهي شكوى قديمة عند الشعراء حين يقعد بهم الحظ ولا ينالون ما يتمنون أو ما يرون أنهم جديرون به. ويبلغ بهم ذلك أن يقولوا ما يقوله فتيان من أن لا فائدة في الحركة وأن المساوي تقدم أصحابها بينما تتأخر المحاسن بأهلها وهو بعدّ في الشكوى وإغراق في التشاؤم.

مصطفى[١] البابيّ

هو مصطفى بن عبد الملك- وقيل عثمان- البابي، ولد بالباب إحدى قرى حلب في القرن الحادي عشر الهجري أيام العثمانيين، ونشأ بحلب وتتلمذ على شيوخها وأدبائها، وتركها إلى دمشق سنة ١٠٥١ للهجرة وأقام بها مدة يأخذ عن أدبائها وشيوخها، ورحل إلى إستانبول وأفاد من علمائها وعيّن قاضيا لطرابلس وتنقل قاضيا في بلدا الدولة العثمانية بالعراق والحجاز في المدينة المنورة،وتوفى بمكة في أثناء حجه سنة ١٠٩١.

وكان البابي شاعرا مجيدا، ويشغل المديح أكثر ديوانه على عادة الشعراء في تلك الحقب، ويتخلل المديح أسراب من الشكوى. وقد يفرد للشكوى بعض القصائد، من ذلك قوله من قصية استهلها محزونا لتحول عهد مية، ويقول إنه ما زال يبكى الأطلال حتى بكته بدمعها إشفاقا عليه، ويلتفت إلى الدهر شاكيا.

أي ذنب نعاتب الدهر فيه ... وعتاب الأيام داء عضال

أنا ما بين فرقة تجمع السق ... م وبعد تدنو به الآجال

وخطوب ألفتها يستعيذ الـ ... ـخوف منها وتذُعر الأهوال

وأمانٍ تجاذب الدهر ذيل الـ ... ـحظ والدهر جاذب جدال

همة أرقت جفون الأماني ... بوعود للدهر فيها مطال

أتمنى من الزمان وفاء ... ووفاء الزمان أمر مجالُ

يقول إن ذنوب الدهر عنده كثيرة فلا يدرى لكثرتها، أي ذنب يعاتبها فيه هل يعاتبها في فرقة الأحباب أو فيما ينزله به من خطوب يستعيذ الخوف من شرها وتفزع الأهوال. وتلك أمانيه ما تزال تجاذب الدهر ذيل الحظ تريد أن تجذبه إليها والدهر أشد جذبا نبل إنه جدال يصرع من ينازعه، وفي صدره همة تؤرق جفون الأماني بما تعرضه

---

(١) انظر في مصطفى البابي وشعر، نفحة الريحانة ٤٣٣/٢ وخلاصة الاثر ٣٧٧/٤ طبع ديوانه في بيروت سنة ١٨٧٢ وطبع مع ديوان ابن الجزري وفتح الله بن النحاس باسم العقود الدرية بتحقيق الطباخ.

عليها من وعود وما يزال الدهر لا يفي بها، وكأن وفاءه أمر محال. ويقول من قصيدة يشكو فيها الزمان.

صاحبيّ ابغيا لنا خارج العا لم داراً فبئس دار الزحام

وأصدقائي ألستما بين ليل ونهار مالي حليف ظلام

واستعيرا لمقلتي هجعة عـ ـل منامي يعود لو في منام

من أمور تقذى العيون وأخرى تصدع السمع مثل وخز السهام

مشرب كله قذى سوغته إلف هذى النفوس للأجسام

من أراد العيش الهنيّ فلا يُعـ ـمل فكرا فالعيش عيش السوام

وقد بلغ به ذم العالم وكل ما فيه من أناسي وغير أناسي انه يود لو خرج من هذا العالم جميعه، ويتساءل أليس يوجد مع الليل نهار بل إنهما يتعاقبان فلماذا هو يعيش في ليل مسهدا لا ينام ولا تغفل عينه، فهل يجد هجعة أو لحظة من نوم حتى ولو في الخيال والمنام، وهيهات فإن الدنيا مليئة بما يقذى العيون ويصك الأسماع من آلام، حتى لكأنها مورد من غسلين أو زقوم، وكل ذلك بسبب الأجسام وما تلطب من متاع مادي. ويقول من أراد أن يعيش هنيئا فلا يفكر، فالعيش عيش الجهال ومن يشبهون السوام الراعية من الإبل. وكل ذلك تشاؤم شديد، والغريب أنه كانت فيه مع ذلك كله نزعة صوفية جعلته يمدح القطب الرباني عبد القادر الجيلاني صاحب الطريقة الجيلانية فضلا عما في ديوانه من مدائح نبوية وتوسلات ربانية.

٤

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

لشعراء الشام من قديم عناية بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة، ومرت في كتاب العصر العباسي الأول عناية أبي تمام بوصف الطبيعة في مقدمات مديحه أو مستقلة في بعض أشعاره، من ذلك وصفه للربيع، وكذلك وصفه للطير وأحاسيسه، على نحو ما عرضنا هناك من تصويره لقمري وقمرية يتساقيان رحيق الهوى، بينما هو محزون شديد الحزن. ووقفنا في كتابنا العصر العباسي الثاني عند براعة البحتري في وصفه للطبيعة وكان يحسن تصوير مناظرها الساحرة. ونلتقي في أوائل عصر الدول والإمارات بكشاجم وله كتاب في الصيد سماه المصايد والمطارد وهو منشور، وله قصائد مختلفة في وصف كلاب الصيد وجوارح الطير وقصائد كثيرة في وصف الرياض والسحب والأمطار من مثل قوله:

غيث أتانا مؤذن بخفض — متصل الويل حثيث الركض

يضحك في برق خفي الومض — كالكف في انبساطها والقبض

والأرض تجلى بالنبات الغض — في حليها المحمر والمبيض

وأقحوان كاللجين محض — ونرجس ذاكي النسيم بض

مثل العيون رنقت للغمض — ترنو ويغشاها الكرى فتفضي

وهو مطر متصل الويل يؤذن- كما يقول- يخفض العيش واتساعه ويسره والبرق يلمع بين السحب ويتوارى كالكف تنبسط وسرعان ما تنقبض، والأرض كأنها في حفل عرس تجلى بأزهارها وورودها والأقحوان يتلألأ كالفضة الخالصة والنرجس العطر النضر مثل العيون تنكسر جفونها للنوم، وهي تارة ترنو وتارة تستسلم للنوم فتغضي أو بعبارة أخرى تطبق جفونها الناعسة، وتنسب إلى سيف الدولة الحمداني الأبيات التالية في قوس قزح [1]:

---

(١) اليتيمة ٣١/١.

لقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا　　على الجو دُكنا والحواشي على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر　　على أحمر في أخضر تحت مُبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل　　مصبغة والبعض أقصر من بعض

يقول: رياح الجنوب نشرت على الجو ثيابا دكنا مغبرة ملأت الآفاق بالطول والعرض وحواشيها على الأرض، وقوس قزح يطرزها بألوانه البهيجة الكهرمانية والياوتية والزمردية، وكأنما شابة جميلة أُقبلت في غلالات أو ثياب رقيقة صُبغت بألوان مختلفة بالطول والعرض وبعضها أقصر من بعض. وهي صورة بديعة. ويقول العرقلة من شعراء الخريدة [١]:

الشام شامة وجنة الدنيا كما　　إنسان مقلتها الغضيضة جلق
من آسها لك جنة لا تنقضي　　ومن الشقيق جهنم لا تحرق
فعلام تصحو والحمام كأنها　　سكرى تغنى تارة وتصفق
وتلوم في حب الديار جهالة　　هيهات يسلوها فؤاد شيق

وهو يجعل الشام خالا في وجنة الدنيا ويجعل " جلق " اسم دمشق القديم إنسان مقلتها الغضيضة التي ترمقها باستحياء، لجمال أزهارها من آس وغير آس، وكأنما تخدر بجمالها أحاسيس مُشاهدها، فلا يصحو، والحمام من حوله فرح بهيج يغني ويصفق طربا. وإن الشام لخليقة بحب أهلها وفتنتهم بها لجمال مناظرها الطبيعية.

ويقول فتيان الشاغوري في وصف قرية الزبداني بشهر كانون شتاء والثلوج تتراكم على أشجارها ونباتاتها في شهر كانون زمن الشتاء مهيئة لازدهار أزهارها في زمن الربيع[٢]:

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح　　وأخمد الجمر في الكانون حين قدح
يا جنة الزبداني أنت مسفرة　　عن وجه حسن إذا وجه الزمان كلح

---

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٧/١.
(٢) الديوان ص ٩٤ وابن خلكان ٢٥/٤.

فالثلج قطن عليك السحب تندفه والجو يحلجه القوس قوس قُزح

وقد صور فتيان كل ما يحمل ماء في الزبداني بأقداح تحمل خمرا، وقد جمدها القر الشديد وأخمد الجمر في الكانون أو الموقد حين اتقد. ويتصور قرية الزبداني جنة من جنان الدنيا وما يلبث أن يصورّ الثلج وهو يتساقط كالريش من السحب مثل قطن، والسحب تندفه بقوس قزح. والجو يحلجه. صورة بديعة.

ويقول الوداعي على بن المظفر في منظر رأس العين ببعلبك [١]:

يا حادي الأظعان إن شارفت من بعلبك سفح لُبنانه

فاقرأ تحياتي على نازلٍ في محجر العين كإنسانه

والروض يهدي مع نسيم الصبا نشر خُزاماه وريحانه

وراسل القمري ورقاءه شدوا على أوتار عيدانه

وقد أشار الوداعي إشارة واضحة بمحجر العين إلى رأس العين منزل صاحبته، وأبدع في البيت الأخير إذ جعل القمرى المترنم على عيدان الأشجار يراسل صحابته شدوا وغناء على أوتار تلك العيدان. وتكثر مثل هذه الطرائف التصويرية عند معاصرين به في زمن المماليك، وبعدهم في زمن العثمانيين كقول فتح الله بن النحاس في وصف الربيع [٢]:

نثر الربيع ذخائر الند وار من جيب الغوادي

والورد مخضوب البنا ن مضرج الوجنات نادي

حرسته شوكة حُسنة من أن تمد له الأياد

والعندليب أمامه بفصيح نغمته ينادي

من رام يعبث بالخدو د فدونها خرط القتاد [٣]

---

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٤٢.

(٢) الديوان ص ٢٣ ونفحة الريحانة ٥١٢/٢.

(٣) دونه خرط القتاد: مثل يضرب للشئ لا ينال إلا بمشقة شديدة.

والصور في الأبيات جيدة فالربيع ينثر الأزهار من جيب السحب الغوادي والورد أحمر البنان والوجنات تلمع عليه لآلى الندى، والشوك يحرسه من قطف الأياد والعندليب ينادي: دون هذه الوجنات خرط القتاد، وهو مثل يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة شديدة، والقتاد: نبات صلب له شوكة الإبر وخرطه: انتزاع إبرد.

وبجانب وصف الطبيعة كان للهو مجالسه في متنزهات الغوطة بدمشق وغير الغوطة بالشام، إذ تمتلئ بالبساتين، وكن له مجالس أخرى في الأديرة، مما أتاح لنظم خمريات كثيرة تارة تكون مستقلة وتارة تمتز بصوف الطبيعة أو بالغزل، وتماد بعض الشعراء في مجونه وأسرف في هزله على نحو ما نقرأ من أشعار لأبي الرقعمق [١] الأنطاكي شاعر المعز الفاطمي وأبنائه ووزرائهم، وكان لا يستحي بالتصريح بالفحش والمآثم على شكالة أبي الحجاج ماجن العراق الذي تحدثنا عن مجونه وهزله في الجزء الخامس من هذه السلسلة، ومن نظيف مجونه قوله [٢]:

توهمت أمرا فلم أنبس ... بحرف وناديت بالأكؤس

حُميا كأن سنا نورها ... سنا بارق لاح في الحندس [٣]

يُعاطيكها رشا طرفه ... سريع إلى تلف الأنفس

بخد يروقك توريده ... وعين تنوب عن النرجس

وهو يقول إن بعض الأوهام ساورته فلم ينبس ببنت شفة أو كلمة وانصرف إلى الخمر معشوقته التي تلعب حُمياها بخياله، فيظن كأن ضوءها ضوء برق لمع في دجى الليل، وإن ساقيه ساحرة الطرف لتقدمها إليك فتصيبك في الصميم بخد مورد وعين فاتنة.

ويقول الغزي الذي مرت ترجمته [٤]:

فلم نفترعها كأنها الذهب ... بكرا، أبوها وأمها العنب

---

(١) أنظر في أبي الرقعمق اليتيمة ٣٢٦/١ وابن خلكان ١٣١/١ والعبر ٧٠/٣ والشذرات ١٥٥/٣.

(٢) اليتيمة ٣١٢/١.

(٣) حميا الخمر: سورتها وشدتها. سناء: ضوء، الحندس: دجي الليل الشديد السواد.

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٨١/١

أرق من عبرة اليتيم ومن عبارة الصب قلبه وصب

مدامة تصقل القلوب إذا رانت عليها الهموم والريب

كئوسها أنجم نضل بها لا يهتدي من تضله الشهب

لا فدم فينا ولا فدام لها عروس دن عقودها الحبب

وهو يقول لصاحبه قم نفترعها أو نفتضها ونشربها، إنها في رأيه- كعروس بكر- أبوها وأمها العنب، رقيقة رقة عبرة اليتيم وعبارة الصب أو المحب الوصب الموجع قلبه. ويقول إنها تجلو القلوب وتكشف عنها الهموم والريب أو الشكوك، ويعجب من كئوسها أن تكون أنجما ولا تهدين بل تضل صاحبها وأي ضلال بينما عادة النوم أن تهدي، ومن تضله لا يهتدي أبدا، لأنه فقد هداه. ويذكر أن ليس في رفاقه فدم أو أحمق وأنه لا فدام لها أو مصفاة إذ هي شديدة الصفاء، ويقول إنها عروس دن عقود جيدها لآلي الحبب التي تعلو كئوسها حين يمتزج بها الماء. ويدعو فتيان الشاغوري صديقا إلى نزهة قائلاً [1]:

بادر إلينا فإن الراح ممكنة والكأس دائرة والشمل مجتمع

ويومنا طيب صافي الأديم وما فيه هواء ولا في رأسه قزع

والطير ترقص في الأغصان من طرب تكاد منه على هاماتنا تقع

وفتيان يصور لصاحبه ما فيه من أنس مع رفاقه، فالكأس دائرة بينهم واليوم من أيام الربيع لا فيه عواصف ولا في سمائه قزع أو قطع من السحاب المنتشر المنذر بالمطر، والطير ترقص على الأغصان طربا وفرحا بالربيع حتى تكاد لشدة فرحها وطربها تقع على هاماتهم أو رءوسهم.

وتكثر مقطعات الشعر في مجالس اللهو سواء في الخمر أو في الطبيعة ويشتهر بنظمها أربعة يفرد لهم الحموي في خزانته فصولا طويلة هم مجبر الدين بن تميم، وسنخصه بترجمة، وبدر الدين يسوف بن لؤلؤ الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ والقاضي

---

(١) الديوان ص ٢٦٨.

محـي الـدين بـن قرنـاص الحمـوي معاصـره وعلـي بـن المظفـر لـوداعي المتـوفى سـنة ٧١٦، ومن طريف م أنشده الحموي لابن لؤلؤ الذهبي قوله [١]:

باكر إلى الروضة نستجلها فثغرها في الصبح بسام

والنرجس الغض اعتراه الحيا فغض طرفا فيه أسقام

وبلبل الدوح فصيح على الأ يكة والشحرور تمتام

فعاطني الصهباء مشمولة عذراء فالواشون نوام

وأكتم أحاديث الهوى بيننا ففي خلال الروض نمام

وهـو خفيـف الـروح مثـل زملائـه المـذكورين وكـانوا جميعـا يعنـون بالتوريـة التـي أشـعتها مصـر منـذ العصـر الفـاطمي عنايـة واسـعة، وقـد ورّى فـي البيـت الثـاني بكلمـة الحيـا وهـو الخجـل عـن الحيـا بمعنـى المطـار. وجعـل للبلبـل لجمـال نائـه وشـدوه الفصـاحة وللشـحرور وهـو نـوع مـن العصـافير التمتمـة. ضـرب مـن المقابلـة. وجعـل الصـهباء مشـمولة أو بـاردة طيبـة واسـتتم الصـورة بأنهـا بكـر أو عـذراء والواشـون نـوام. وعـاد إلـى التوريـة فـي البيـت الأخيـر بكلمـة نمّـام- وه وضـرب مـن السّـعتر مزهـر- عـن النمّـام الحقيقـي مـن الأشـخاص. ويقول محي الدين بن قرناص [٢]:

روضة من قرقف أنهارها وغناء الورق فيها بارتفاع

لا تلم أغصانها إن رقصت فهي ما بين شراب وسماع

وقـد روى محـي الـدين بكلمـة قرقـف وهـو المـاء البـارد الصـافي عـن الخمـر وهـو اسـم مـن أسـمائها، واسـتتم الصـورة إذ جعـل أنهـار الروضـة خمـرا مسـكرة بـأن الحمـام فيهـا أخـذه السـكر، بـل إن الأغصـان نفسـها التـي رويـت مـن تلـك الأنهـار سـكرت فرقصـت، فـلا عجـب أن يشـدو الحمـام شـدوا عاليـا. وأنشـد الحمـوي فـي خزانتـه لابـن قرنـاص مقطعـات بديعـة كثيرة في الرياض ومثله الوداعي، وهو يكثر من التورية كثرة مفرطة.

---

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٣٢٦.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٠.

ويظل الغرضان: وصف الخمر ووصف الطبيعة حين طوال أيام المماليك وبالمثل أيام العثمانيين من مثل قول علي بن محمد الحشري الشامي المتوفى سنة ١٠٩٠ للهجرة [١]:

قم هاتها وضمير الليل منشرح والبدرُ في لجة الظلماء مستبح

عجل بها وحجاب الليل منسدل من قبل يبدو لنا في وكره الصبح

واستضحك الدهر قد طال العبوس به لا يضحك الدهر حتى يضحك القدح

ولا يطيب الهوى يوما لمغتبق حتى يكون له في اليوم مصطبح

وهو يخاطب ساقيا أن يناوله كأس الخمر والليلُ من حولهن مبتهج وأضواء البدر تلمع في جوانبه ويطلب إليه أن يسرع بها وحجاب الليل منسدل عليه قبل أن يرفرف الصبح بجناحيه فيملأ الدنيا أنوارا. ويقول إن الدهر لا يقبل عليه ويضحك إلا إذا ضحك الكأس في يده، ويزعم أن الهوى لا يطيب لمن يرب الخمر غبوقا وهو شربها بالعشي حتى يكون له منها صبوح وهو شربها في الصباح. ونقف عند نفر من شعراء الطبيعة واللهو.

الوأواء[٢] الدمشقي

هو محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوأواء الدمشقي، من أهل دمشق، ولد بها ونشأ، وكان ابنا لشخص من عامة الشعب. يدل على ذلك ما رواه الثعالبي في اليتيمة من أنه لُقب بالوأواء لأنه كان مناديا بسوق الفاكهة، أو كما كانوا يسمونها دار البطيخ، ينادي على الفواكه جلبا للمشترين. وقد ذكرنا مرارا في حديثنا عن الشعراء أنهم- في أغلب الأمر- كانوا من عامة الشعب وكانت لهم ملكات هيأتهم لنظمه بل للتفوق فيه. يلقانا ذلك في بغداد وفي القاهرة وفي جميع بلدان العالم العربي. ومكّن لهم ذلك أن التعليم كان يعقد بالمساجد، وكانت دائما هي وحلقات الشيوخ مفتوحة للناشئة ينهلون منها كما يريدون، فكان من له استعداد حسن للتعلم من أبناء العامة ما يزال يتردد

---

(١)نفحة الريحانة ٣٥١/٢.

(٢) انظر في الوأواء وشعر، اليتيمة ٢٧٢/١ والمحمدون من الشعراء للقطفي و فوات الوفيات ٣٠١/٢ وديونه طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق د. سامي الدهان وراجع مقدمته له.

عليها حتى يحسن ما يريد من الفقه مثلا أو من رواية الشعر. ودائما كان يتخرج في هذه الحلقات كثيرون شعراء وغير شعراء على نحو ما تخرج الوأواء المنادى على الفاكهة في حلقات الشيوخ بمساجد دمشق.

وليس بين أيدينا ولا في ديوان الوأواء ما يوضح متى وُلد. وأيضا ليس في الديوان أخبار وأحداث تاريخية تصور حياته، وكل ما فيه أنه لزم شريفا من سادة دمشق ووجهائها يمدحه، وأنه أعطاه في أول مدحة له عشرين دينارا، فأخذ يشتهر اسمه بين الشعراء. ومدحه بثلاث قصائد أخرى، دل فيها على شاعرية جيدة، ويذكرون أن اسم هذا الشريف العقيقي أحمد بن الحسن العلوي، فهو من أشراف العلويين وربما كان نقيبهم بدمشق. ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان جواداً ممدحا، وكان على صلة بسيف الدولة في أول إمارته لحلب في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري. وربما كان هو الذي قدم الوأواء إليه حين زار دمشق بين سنتي ٣٣٣ و ٣٣٤. وفي ديوانه ثلاث قصائد في مديحه، ولذلك عد من شعرائه. ومن عطايا سيف الدولة والعقيقي أخذ الوأواء يعيش للشعر متكسبا به، وكانت فيه نزعة قوية للمتاع بالحياة، مما عل أكثر شعره يور حول محاور ثلاثة: الغزل والخمر ووصف الطبيعة، وكثيرا ما يمزج بينها جميعا مثل قوله في القصيدة الأولى من ديوانه:

حاز الجمال بأسره فكأنما ... قُسمت عليه محاسن الأشياء

متبسم عن لؤلؤ رطب حيك ... بردا تساقط من عقود سماء

تُغنى عن التفاح حمرة خده ... وتنوب ريقته عن الصهباء

فامزج بمائك نار كأسك واسقني ... فلقد مزجت مدامعي بدمائي

واشرب على زهر الرياض مُدامة ... تنفي الهموم بعاجل السراء

لطفت فصار من لطيف محلها ... تجرى مجارى الروح في الأعضاء

والوأواء معروف بكثرة تصاويره في أشعاره، فساقيته الخمر تبتسم عن أسنان لؤلؤية كأنها حبات برد تساقطت من عقود في السماء، وحمرة خدها نضرة كحمرة التفاح، وريقها كأنه الصهباء أو الخمر. ويطلب إليها أن تمزج الخمر الحمراء بالماء كما امتزجت مدامعه بالدماء. وقول لصاحبه اشرب على زهر الرياض الذكي الرائحة تلك

الخمر التي تجلب السرور كما يقول، ويزعم أنها تجرى في جسمه مجرى الروح في الأعضاء. ومن قوله في وصف الراح:

وبنت كرم كأنها لهب　　تكاد منها الأكف تلتهب

تلعب في كأسها إذا مُزجت　　كأنما يستفزها طرب

في عرصه الكأس حين تمزجها　　سماء تبر نجومها ذهب

وهو يتحدث عن الخمر باسم بنت الكرم، ويقول إنها حارة كأنها لسان لهب، وإن الأكف في زعمه تكاد تلتهب لشدة حرارتها. ويزعم أنها تلعب في كأسها حين يمازجها الماء فيطفو حبابها وتضطرب بعض الاضطراب ويجعل للكأس عرصة أو ساحة ويقول إنها تشبه فيه- بزعمه سماء فضية من فتات التبر، نجومها- أي حبابها- ذهب. ويقول من قصيدة:

اسقياني ذبيحة الماء في الكأ　　س وكفا عن شرب ما تسقياني

إنني قد أمت بالأمس إذا مـ　　ـت بها أن أموت موتا ثاني

اسقني القهوة التي تنبت الور　　د- إذا شئت- في خدود الغواني

في رياض تريك في الليل منها　　سُرجا من شقائق النعمان

كتبتها أيدي السحاب بأُلا　　م دموعٍ على طروس المعاني

وهو يتصور مزج الماء بالخمر إعداداً لشربها ذبحا، ويطلب إلى صاحبيه أن لا يسقياه لماء وإنما يسقيانه دم الخمر المسفوح. ويزعم أنه لا خوف عليه فقد أماته بالأمس ولن يموت ثانيا. ومثله من مدمني الخمر يموتون مرارا. ويقول إن القهوة أي الخمر تضرج خدود الغواني بالخمرة فتصبح كالورد، ويقول إنه يحتسبها في رياض تنير بها ليلا الورود المعروفة باسم شقائق النعمان. ويزعم أن أيدي السحاب كتبت تلك الشقائق بأقلام تستمد من محابر غريبة هي دموع العشاق التي استحالت دما قانيا وقد دُونت على طروس، هي صحف المغاني أو الرياض. ودائما يعني الوأواء في شعره بالتصاوير والأخيلة، ومن أكبر الأدلة على ذلك بيته المشهور:

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت　　ورداً وعضت على العناب بالبرد

فقد استعار اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخد والعناب للأصابع والبرد للإنسان، وهي صور لا تحمل شعورا، فضلا عن وجد، غير أن معاصريه كانوا يعجبون بها عنده، وقد بنى الحريري على هذا البيت نفسه مقامته الثانية. وذكر صاحب فوات الوفيات أنه بارح الدنيا في عشر التسعين وثلاثمائة، وأكد أن كلمة التسعين مصحفة عن كلمة السبعين.

ابن[١] قسيم الحموي

هو مسلم بن الخضر بن قُسمي التنوخي الحموي، ولد ونشأ بحماة، ويقول العماد: " كان ثالث القيسراني وابن منير بلغ إلى درجتهما.. وفاق شعرهما شعره، لكنه خانه عمره، وفل شبا (حدّ) شبابه، وحل شعوب (الموت) بشعابه، وذلك في سنة نيف وأربعين وخمسمائة". والعماد يقول إنه توفى شابا ويبدو أن ميلاده لا يعدو العقد الأول من القرن السادس الهجري كما يبدو أن موهبته العشرية نضجت مبكرة، وسرعان ما عمد إلى التكسب بشعره فمدح صاحب حماة، وتطلع إلى الشهرة بين الشعراء وأحس من واجبه أن يسهم بشعره ضد حملة الصليب، وكان عماد الدين زنكي قد أخذ في منازلتهم. وحدث أن خرج ملك الروم ن القسطنطينية ومعه جش كثيف سنة ٥٣٢ لغزو الشام واستولى على بُزاغة وحاصر حصن شيزر بالقرب من حماة فاستغاث صاحبه سلطان ابن منقذ بزنكي فأسعر إلهي في عساكره، واضطر ملك الروم إلى الانسحاب، فغنم زنكي وعساكره من جيشه غنائم كثيرة سوى مجانيقه وآلات حصارة للحصن، ومدحه الشعراء وفي مقدمتهم ابن قسيم بقصيدة رائعة استهلها بقوله:

بعزمك أيها الملك العظيم تذلُ لك الصعاب وتستقيم

وكان ابن قسيم حينئذ في ريعان شبابه، وطارت قصيدته كل مطار، وفي عام ٥٣٤ حاصر زنكي دمشق، وأعلن له أنر مدبر دولة أبناء طُغتكين وقائد جيشهم دخول دمشق في طاعته. وفي هذه الأثناء يفد ابن قسيم على دمشق ويمدح عماد الدين زنكي ويبدو أنه ظل بها مدة فإننا نراه يطارح شاعرها ابن منير مرارا. وأيضاً فإنه يمدح أنر

---

(١) انظر في ابن قسيم وشعر، الخريدة (قسم الشام) ٤٣٣/١ ومفرج الكروب لابن واصل ٨٢/١ والروضتين لأبي شامة ٣٢/١.

مدبر وله آبق بن محمد بن بوري، وكان زنكي قد ارتضى أن تظل بها أسرة طُغتكين والقائم على دولتهم أنر. فاتصل به ابن قسيم ومدحه، وأسبغ عليه الجوائز كما اسبغها عليه من قبل زنكي، وله فيه مدحة أرخها العلماء الأصبهاني بسنة ٥٤٢. ولا نرتاب في أنه ظل متصلا بزنكي بمده وخاصة حين استولى على الرُها سنة ٥٣٩ وبمجرد أن توفي زنكي سنة ٥٤١ رجع جوسلين صاحب الرُها إليها بالاتفاق مع من بها من الأرمن، وأسرع إليه نور الدين في عسكره، فهرب جوسلين. وافتتح نور الدين الرُها ثانية وهنأه بان قسيم بهذا الفتح المبين بقصيدة رائعة. وتوفيّ الشاعر سريعا في نفس السنة ويقول العماد الأصبهاني: إنه مات شابا.

وقد استعرض العماد في خريدته ديوان شعره واقتطف منه مختارات كثيرة، وهي تدور حول الغزل ووصف الطبيعة والخمر، ويبدو أنه كان يغرق في اللهو والمجون، وإنه ليدعو بعض صحبه لمشاركته فيما يقترف منها بمثل قوله:

خير ما أصبحت مخلوع العذار فانف عنك الهم بالكأس المُدار

قم بنا ننتهب اللذة في ظل أيام الشباب المستعار

إنما العارُ الذي تحذره أن تراني من لباس العار عاري

وسعيد من تقضى عمره بين كاسات رضاب وعقار [1]

في اصطباح واغتباق واقترا بٍ واغترابٍ واهتاك واستتار

وهو يصرح- ولا يخفي- بأنه يشرب الخمر المحرمة، غير آبه لما يجره عليه ذلك من عار بين أصحابه، إذ يجد فيها هناءته وسعادته، وهو لذلك يعكف عليها صباحا وسماء أو اصطباحا واغتباقا كما يقول، ويعكف عليها قارا في بلدته حماة ومغتربا في دمشق وغير دمشق، وهو يشربها متواريا ومجاهرا بعصيان ربه منتهكا لحرماته. ومن قوله في خمرية ثانية.

باكرا شمس القناني تُدركا كل الأماني

وخذا في لذة العيـ ش على رغم الزمان

---

(١) الرضاب: الريق، العقار: الخمر

قهوة ألبسها المز ج قميصا من جمان [١]

كخدود الورد من تحـ ـت ثغور الأقحوان

إنما البغية أن أصـ ـبح مخلوع العنان

وهو يدعو إلى المتاع بالخمر، ويصورها بصور جميلة، إذا مزجت بالماء وكأنما لبست قميصا لؤلؤيا. ويصورها في حمرتها والماء آخذ بتلابيبها بثغور من الأقحوان الأبيض تعلوها خدود وردية. ولا يلبث أن يعلن في أبيات تالية عصيانه لربه، فكل ما يبغيه أن يظل سادار في خلع عنانه- أو كما قال في المقطوعة السابقة- في خلع عذاره متهتكا ساجدا في قبلة الكأس لتسبيح مثاني العود وأوتاره. وكأنه يعيد لنا صورة أو صورا من خمريات أبي نواس المتهتكة الخليعة المارقة.

ولابن قسيم بجانب مجونه وغزلياته أشعار في وصف الطبيعة وأشجارها وأزهارها وثمارها من ذلك قوله يصف رمانة:

ومحمرة من بنات الغصو ن يمنعها ثقلها ان تميدا

منكسة التاج في دستها تفوق الخدود وتحكي النهودا

تُفض فتفتر عن مبسم كأن به من عقيق عقودا

كأن المقابل من حبها ثغور تقبل فيها خدودا

وتصويره للرمانة بأنها منكسة التاج في دستها او صدرها تصوير بديع لأنها تتهدل وتتدلى في غصنها وعلى صدرها بقية نُوارها. ويتصور حباتها عقودا من عقيق، وكأنها تحمل بتلك الحبات وما يحيط بها من خيوط بيضاء ثغورا تقبل خدودا. وكان ابن قسيم شاعرا مجيداً، ومرّ بنا أنه كان يتشيع وأنشدنا له أبياتا من شعره الشيعي.

---

(١) الجمان: اللؤلؤ.

مجبر[١] الدين بن تميم

هو مجبر الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم، ولد بدمشق ونشأ بها، وسال الشعر على لسانه وانتقل إلى مدينة حماة وعمل في جيش صاحبها الملك المنصور سيف الدين محمد (٦٤٢- ٦٨٣ هـ) جنديا، إحساسا منه بفتوته وشجاعته، ويصور إقدامه وبسالته في شعره قائلاً:

دعني أخاطر في الحروب بمهجتي إما أموت بها وإما أرزق

فسواد عيشي لا أراه أبيضاً إلا إذا أحمر السنان الأزرق

وقربه منه الملك المنصور وأصبح له اختصاص به. ويقول صاحب فوات الوفيات: " هو في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين (من الشعراء) آية، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف غاية، لأنه يأخذ المعنى الأول ويحل تركيبه وينقله بألفاظه إلى معنى ثان، حتى كأن الناظم الأول، إنما أراد به المعنى الثاني وقد أكثر من ذلك حتى قال:

أطالع كل ديوانٍ أراه ولم أزجر عن التضمين طيري

أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

ويقول أيضا صاحب الفوات فيه" كان جنديا محتشما شجاعا مطبوعا كريم الأخلاق بديع النظم رقيقه لطيف التخيل" ويقول صاحب النجوم الزاهرة: " كان من الشعراء المعدودين". ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فكانت سنة ٦٨٤ للهجرة.

ومجبر الدين بن تميم من أصحاب المقطعات الطريفة في الغزل والطبيعة والخمر، ولا يبارى في ابتكار الصور والأخيلة وحشد التوريات في مقطعاته، مع الظرف وخفة الروح والتعليلات الحسنة، ونقتطف بعض أمثله من شعاره، من ذلك قوله في الساقية والطبيعة من حولها:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى ودمعهما بين الرياض غزير

---

(١) انظر في مجبر الدين بن تميم وشعره، فوات الوفيات ٥٨٣/٢ وخزانة الأدب للحموي ص ٣١٩- ٣٢٥ و النجوم الزاهرة ٣٦٧/٨ وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورة لمختارات من ديوانه بخط الصفدي في ٤٧ ورقة.

كأن نسيم الروض قد ضاع منهما فأصبح ذات يبكي وذاك يدور

ولكلمة "ضاع" معنيان: معنى سطوع الرائحة الطيبة التي يحملها النسيم عن الأزهار، ومعنى الفقد والهلاك، وبذلك تمت لابن تميم التورية التي يريدها من استخدامه للكلمة، وقد أراد المعنى الثاني. ويقول مفاخرا بين الأرض والسماء.

يا جاعل الأفق مثل الأرض حجته بالشمس إذ بزغت والبدر حين وضح

كم من شموس وأقمار إذا سرحت في الأرض طرت إليها خفة وفرح

ولا تقل: قُزح في الجو زينة في كل غصن ترى في الأرض قوس قزح

فهو يعارض من يعلى السماء على الأرض بحجة بزوغ الشمس والقمر فيها قائلاً إن في الأرض شموساً وأقمارا من النساء والفتيات أجمل وأكثر حسنا. ويقول لصاحب السماء: لا تحتج بجمال قوس قزح، فأغصان الرياض في الطبيعة تحمل مالا يحصى من أقواس قزح نضرة أرجة. ويقول:

سبقت إليك من الحديقة وردة وافتك قبل أوانها تطفيلا

طمعت بلثمك إذ رأتك فجمّعت فمها إليك كطالب تقبيلا

وهي وردة في بدء تفتحها وهي لا تزال في كمّها، مما جعله يعلل تجمعها قبل أن تفتح هذا التعليل البديع الدالّ على لطف تخيله كما قال صاحب فوات الوفيات. ويقول في وصف ناعورة أو ساقية:

ناعورة مذ ضاع منها قلبها ناحت عليه بأنه وبكاء

وتعللت بلقائه فلأجل ذا جعلت تدير عيونها في الماء

فقواديسها لا تهوى فارغة طلبا للماء والصعود به، وإنما تهوى بحثا عن قلبها الذي ضاع منها، وجعل لحونها الحزينة أنينا وبكاء عليه. ويقول:

لم لا أميل إلى الرياض وزهرها وأقيم منها تحت ظل ضافي

والغصن يلقاني بثغر باسمٍ والماء يلقاني بقلب صافي

والثغر الباسم هو الأقحوان المتفتح والشعراء يشبهونه بالثغر كثيرا، وفي البيتين رقة ودقة حس وخفة روح. وقد يخلط الطبيعة بالغزل كما في قوله:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس
وأصابع المنثور تومي نحونا حسدا وتغمزها عيون النرجس

والمنثور زهر ذكي يزهو في أعلى سيقانه، شبهه ابن تميم الأصابع، وتشبيه الشعراء للنرجس بالعيون قديم. وقد استغلهما جميعا في هذا التعليل، إذ لا يستطيع الاقتراب من صاحبته. ويقول في الخمر مداعبا:

روحي الفداء لمن أدار بلحظة صهباء في عقلي لها تأثير
فاعجب له أني يصون بلحظة مشمولة وإناؤها مكسور

وكلمة "مكسور" إما من كسر الإناء بمعنى تهشمه وتحطمه، وإما كسر ما فيه من الخمر بالماء وهو كسر حمّياها وثورته، وهو المعنى المراد في البيت. ويقول أيضا في الخمر:

وليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسلُ شبابي من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرتُ إلى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

ويريد بالغزالة الشمس وبنرجس الظلم النجوم. ولم يكن ماجناً مثل ابن قسيم، ولا ندرى هل كان يشرب الخمر حقاً أو كان ينظم فيها محاكاة لمدمنيها تظرفا. ومن طرائفه في الرياض قوله:

بعث النسيم رسالة بقدومه للروض فهو بقربه فرحان
ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان

والهزار: طائر حسن الصوت يشتهر بلحونه الكثيرة. وواضح ما في ميل الأغصان لسماع شدو الهزار من عنصر المفاجأة، وكل مقطوعات تميم تقوم على هذا العنصر وما يحدث في النفس من هزة الارتياح والسرور لسماع مثل هذه المفاجآت الكثيرة عنده، وقد أنشد منها صاحبا الفوات والخزانة بدائع كثيرة.

ابن[١] النقيب

هو عبد الرحمن بن محمد الحسيني الملقب بابن النقيب، ولد في دمشق سنة ١٠٤٨ للهجرة لأبيه النقيب الشريف، وعُنى بتربيته، فحفظ القرآن الكريم، واختلف إلى شيوخ أيامه بالإضافة إلى أبيه وما كان يلقنه من اللغة والحديث. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، واتجه بها إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس والغزل مع الإلمام بالمديح، ولم يكن في حاجة إلى تكسب به، ولذلك يمكن أن تعد مدائحه في باب الإخوانيات، وهي ليست الجوهر في ديوانه المنشور، غنما الجوهر فتنته بالطبيعة الدمشقية ومتنزهاتها وبجمال الدمشقيات ووصف الراح من خلال الطبيعة الفاتنة. ويقول المحبي " ما أذكره له تشبيه زُهر (حسان) أو زهر، أو وصف روض مطل على نهر، وهو ممن أغرى بهذين النوعين، وذلك أما لميل غريزي في فطرته، أو لأن دمشق متروح فكرته". ولم يطل به الدهر بين هذه المفاتن التي كانت تخلب لبه. فقد توفى في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ١٠٨١ للهجرة. ومن قوله في نهر وروض على حافتيه:

النهر يصدا بهاتيك الظلال كما　　يصدا من الغمد حد الصارم الذكر
والزهر يفرش في شطيه ما رقمت　　فيها السحائب من ربط ومن حبر
ربيعة الوشي لا ينفك زبرجها　　يجلو لنا من حلاها أحسن الصور[٢]

ويشبه الشعراء الأنهار الضيقة والجداول بالسيوف لشدة لمعانها. وقد جعل ابن النقيب النهر يصدأ كما تصدأ السيوف، أما هي فتصدأ بأغمادها، وهو يصدأ بظلال الأشجار من حوله، والزهر يفرش في شطيه ما رقمت أو نقشت فيهما السحائب من ربط وجبر أو ملاءات مخططة وحريرية ذات وشى ربيعي لا يزال زبرجه ونقشه يجلو من حلى الطبيعة وجواهرها أجمل الصور.. ويذكر مجلسا من مجالس أنسه في بعض متنزهات دمشق قائلاً:

ومجلس حفت الغصون بنا　　فيه ووجه الرياض مبتهج

---

(١) انظر في النقيب وشعره خلاصة الأثر ٣٩٠/٢ ونفحة الريحانة ٣٤/٢ وديوانه (طبع المجمع العلمي العربي في دمشق) وانظر مقدمتي أحمد الجندي وخليل مردم للديوان.

(٢) الزبرج: الحلية من الوشى أو الجوهر.

كأن أوراقها يرف بها　　فوق الندامي نسيمها الأرج

خضر من الأرز لا تزال بها　　مناكب الراقصات تختلج

وهي صورة بديعة إذ يجعل أوراق الأغصان- حين يرف نسيمها فوق الندامي- كأنها أزر أو شيلان تُظل مناكب الراقصات المختلج المتحركة في أثناء رقصها ودورانها فيها. ويقول في بدر يلوح ويحتجب من خلال أغصان:

كأنما الأغصان يثنيها الصبا　　والبدرُ من خلل يلوح ويحجب

حسناء قد عامت وأرخت شعرها　　في لجة والموج فيها يلعب

والصورة أيضا بديعة، فالبدر وهو يظهر ويغيب من خلال الأشجار كحسناء في لُجة مرخية ذوائب شعرها ووج أضوائها من حلوها يلعب في فضاء الطبيعة الساحرة. وكان مغرى بوصف زهرة القرنفل، يصفها بيضاء وحمراء وبيضاء مشربة بحمرة كقوله:

وزهر قرنفل في الروض يحكي　　عقيق دم على صفحات ماء

رأى وجنات من أهوى فأغضى　　فبان بوجهه أثر الحياء

فاحمرار القرنفل إنما هو حياء وخفر منه حين رأى وجنات صاحبته، فأغضى عينيه وقارب بين جفونه استحياء. وله راء شعر الطبيعة واللهو والمجون موشحات مختلفة منها ما عارض به لسان الدين بن الخطيب في موشحته: " جادك الغيث إذا الغيث همي". وله أيضا شعر دوري تتألف المنظومة منه بيتين بيتين. وبدون ريب كان شاعرا بارعا، وحقا ما يقوله المحبي من أنه كان يتخيل التخيلات البعيدة في التشابه العجيبة".

٥

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

الشام من قديم دار عبادة ونسك وتقشف، وبها كان مهبط ديانتين: الديانة اليهودية والمسيحية، ومر بنا في الفصل الأول استعراض لنساكها الأولين ورفضهم للمتاع الدنيوي وإقبالهم على ما عند الله من ثواب الآخرة. وحين قام نظام الرهبنة في المسيحية شاعت فيها الأديرة وشاع فيها النسك. وتعمها أضواء الإسلام، وتشيع فيها تعاليمه الزاهدة وينزلها كثيرون من زهاد الصحابة وأتقيائهم النساك وتشيع فيها التقوى، وتصبح ساحة كبرى من ساحات العبادة، كما تصبح مباءة لكثيرين من صلحاء الأمة، وتتطاير على ألسنتهم كلمات زاهدة تقية كثيرة، عرضنا لأطراف منها في غير هذا الموضع، وطبيعي أن يجد ذلك صداه في الشعر والشعراء الشاميين. ويلقانا في ديوان أبي تمام باب للزهد، ويظل الشعراء بعده ينظمون فيه كقول أبي فراس (١):

أما يردع الموت أهل النهي ... ويمنع عن غيه من غوى

فيا لاهيا آمنا والحمام ... إليه سريع قريب المدى

إذا ما مررت بأهل القبور ... تيقنت أنك منهم غدا

فلا أمل غير عفو الإله ... ولا عمل غير ما قد مضى

وأبو فراس يقول: الموت خير واعظ للإنسان وإنه لجدير أن يردع الغوى عن غيه ويرده إلى رشده، ويجب من لاه آمن على نفسه ولا يفكر في هول ما ينتظره من موت يوشك أن ينزل به، وغدا يطير إلى رمسه، ولا أمل له سوى عفو ربه فحريّ به أن يكف عن كل موبقة ويأخذ من يوم حياته ليوم مماته، وإنه لقريب. ويتعمق أبو العلاء التفكير في الحياة والموت نهاية كل حي وينشد (٢):

هي النفس تهوى الرحب في كل موطن ... فكيف بها إن ضاق في الأرض قبرها

وهل يرتجى خضر الملابس ظاعن ... وقد مزقت في باطن الترب غيرها

---

(١) الديوان ٦/٢

(٢) اللزوميات (طبع مطبعة المحروسة) ٣١٢/١

نوائب ألقت في النفوس جرائحا عصى كل آس في البرية سبرها

لي القوت فليغمر سرنديب حظها من الدر أو يكثر بغانة تبرها

وأبو العلاء يضع أمام الإنسان مصيره وأنه لابد مفارق للدنيا الرحبة الواسعة إلى القبر الضيق المظلم. وربما كان يكنى عن كل متاع الحياة بخضر الثياب يلبسها ظاعن راحل عن دنياه إلى قبر موحش تغبر فيه هذه الثياب وتمزق تمزيقاً. ويقول تلك نوائب تصيب النفوس في الصميم وتحدث فيها جراحا عميقة يستعصي سبرها ومعرفة غورها على كل طبيب، ويذكر أنه لا يفكر في طيبات الحياة ولا تمر بخاطره، إذ هو قانع بقوته وما يسد رمقه، ولتمتلئ سرنديب- أو كما تسمى الآن سيلان - بمغاوص لآلئها من الدرر وليكثر بغانة في غربيّ إفريقيا التبر كما يقولون، فحسبي قوتي. ومرّ بنا أنه كان زاهدا في الدنيا ونعيمها، مكتفيا بالعدس والتين. ومر بنا أيضا أن ديوانه اللزوميات في مجلدين، وقد بناه على تمجيد الله والتحذير من الدنيا ومتاعها الزائل كما قال في مقدمته. ويقول ابن سنان الخفاجي (١):

استغفر الله القديم وعُذ به من شر غاو في الحطام منافس

وافعل جميلا لا يضيع صنيعه واسمح بقوتك للضعيف البائس

واقنع ففي عيش القناعة نعمة لا تتقي كفّ الزمان الخالس

لا تفخرن وإن فعلت فبالتقى ناضل وفي بدل المكارم نافس

وهو يستغفر الله من شر كل غاو منافس في حطام الدنيا ومتاعها الزائل، ويوصى بفعل الجميل ومدّ اليد بالقوت للبائس الفقير. ويوصى أيضا بالقناعة ويقول إنها نعمة لأن الإنسان معها لا يخاف على شئ يختلسه منه الزمن، ويوصيه أن لا يفتخر إلا بالتقي ولا ينافس إلا في المكارم والمحامد. ويقول الحسن بن طارق الحلبي من شعراء الخريدة (٢):

عمرت دار فناء لا بقاء لها ظنا بأنك عنها غيرُ منتقل

---

(١) الديوان ص ٥٧

(٢) الخريدة (قسم الشام) ١٥٨/٢.

أتعتب نفسك لا الدنيا ظفرت بها وأنت لا شك في الأخرى على وجل

دار الإقامة أولى بالعمارة من دار نعيمك فيها غير متصل

فاعمل لنفسك ما ترجو النجاة به فليس ينجيك إلا صالح العمل

وهو يزهد في الدنيا والعمل على تحقيق المآرب فيها مع نسيان الآخرة دار الإقامة الحقيقية التي ينبغي أن يعمل لها الإنسان، وهي حقا الأجدر بأن يقدم لها كل ما يستطيع من تقوى وعمل صالح حتى يفوز برضوان ربه.

ويقول الإمام النووي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ للهجرة (١):

وجدت القناعة أصل الغنى فصرب أذيالها ممتسك

فلاذا يراني على بابه ولاذا يراني به منهمك

وعستُ غنيا بلا درهمٍ أمر على الناس شبه الملك

وكان محيي الدين النووي إماما ورعا زاهداً مثابراً على التقوى والقناعة، فلا أحد من الحكام- كما يقول- يراه على بابه طالبا حاجة، ولا أحد يراه مشغولا به منهمكا، فانهماكه إنما هو في العبادة والتهجد والنسك وفتوى الناس في أمور دينهم وتدريس الفقه والحديث النبوي آخذا نفسه في حياته بالتقشف الشديد. ويقول مصطفى البابي الذي مرت ترجمته: إن الأرض مقبرة كبرى تطؤها أقدامنا غير واعين، بل إنه يبعد في خياله قائلاً:

قد غنينا عن الدروس بما تُمـ لى علينا صحائف الأيام

من عظات تُتلى بغير لسانٍ وسطور خطت بلا أقلام

ولو أن العيون زال غشاها لرأت كل أخمصٍ فوق هام (٢)

بل وفي كل وردة ألف خد وقضيت يميس ألف قوام

فالحياة قصيرة والمصير للجميع الموت، وحري بالإنسان أن يفكر في هذا المصير المقدم عليه، وكم ملايين بل مئات الملايين ماتوا ووراهم أهلهم التراب، حتى لكأن أي

---

(١) الكشكول (طبعة عيسى الحلبى) ٣٠١/١.

(٢) الأخمص: باطن القدم: الهام: الرأس.

مكـان لا يخلـو مـنهم، وحتـى لكنـا نطـؤهم بأقـدامنا، فهـم منبثـون فـي كـل بقعـة وفـي كـل مكـان. ويقـول البـابي لـو زالـت الغشـاوة عـن أعيننـا لرأينـا- ويـالهول مـا نـرى- أُقـداما تطـأ رءوسـا، ولهالنـا أن الـورد النابـت مـن الأرض يسـتمد حمرتـه مـن ألـف خـد، بالمثـل قضـيب الأغصـان الأهيـف المـائس المختـال يسـتمد اختيالـه مـن آلاف قـد. ويلاحـظ المحبـي أن المشهور في هذا المعنى قول أبي العلاء.

خفف الوطء ما أظن الديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقول مهيار:

رويداً بأخفاف المطى فإنما تداس جباه في الثرى وخدود

وكـأن البـابي نظـر إلـى معنـى البيتـين جميعـا، ويضـيف المحبـي أن منـزع هـذا كلـه قول المتنبي:

ويدفن بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

والأوالـى: الأوائـل. ولا يكتفـي المحبـي بـذلك، بـل يقـول أن معنـى بيتـي البـابي دقيـق، وفـي رُباعيـات عمـر الخيـام بالفارسـية مـن نوعـه أشـياء كثيـرة، وبـذكر أنـه تـرجم لـه رباعيـه تحمل هذا المعنى على هذه الصورة.

في الاعتبار بمن مضى من قبلنا عبر وتلك هداية المسترشد

فلكم طوت ترباؤنا أمما وهل ميت بغير تراثها لم يلحد

حتى كأن شقيقها دم أسرة سفكت دماءهم عيون الخرد

وبنفسج الروض الندى كأنه خيلان وجنات الخدود الورد

فالشـقيق الأحمـر القـاني يسـتمد ممـا سـفكته عيـون الجمـيلات مـن دمـاء العشـاق، والبنفسج الأحمر القاتم يستمد من خيلان وجناتهن. وكل ذلك بعد في التصور والخيال.

وكـان يرافـق الزهـد منـذ القـرن الثالـث الهجـري نسـاك- كمـا مـر بنـا فـي الفصـل الأول- أقـرب إلـى المتصـوفة مـنهم إلـى الزهـاد فـي مقـدمتهم ابـن الجـلاء، وكانـت الشـام سـاحة كبـرى للنسـاك يؤمونهـا طـوال هـذا القـرن والقـرون التاليـة مـن العـراق وإيـران مصـر. واشـتهرت جبـال لبنـان وأنطاكيـة بكثـرة مـن كـانوا يقيمـون بهـا للنسـك والعبـادة، وامتـد ذلـك

إلى دمشق وجبالها وغيرها من بلاد الشام. وذكرنا في الفصل الأول نزول الغزالي بها سنة ٤٨٨ وأنه أخذ يستضئ بقوة بما كتبه أبو نصر السراج والقشيري في الوصل بين أهل الشريعة من الفقهاء وأهل الحقيقة من المتصوفة، فلا شريعة بدون عمل القلب وصدق السريرة ولا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل. وبذلك سد الثلمة التي كانت تفصل بين الجماعتين وأحكم الروابط الدينية بينهما. وزادها دعماً نزول حملة الصليب بديار الشام مما جعل حكام دمشق التابعين للدولة السلجوقية يكثرون من بناء الخانقاهات والرباطات للمتصوفة. وتبعهم في ذلك نور الدين حين أصبحت الشام في قبضته، بل لقد اتسع في العناية بهم ورصد النفقات عليهم. وظلت هذه العناية متصلة في عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين والمماليك مما أتاح للتصوف إزدهاراً عظيما.

وكان قد أخذ يظهر في التصوف تيارات كبيران: تيار سني كانت تتبعه جماهير الشبع، وفيه تأسست طرق صوفية متعددة، من أهمها الطريقتان القادرية والرفاعية على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع. وكان بجانب هذا التيار تيار فلسفي يقوم على أفكار الحلول والاتحاد باله، ولم تكن له شعبية التيار الأول، وقد مثّله في القرن السابع محيي الدين بن عربي الذي نشأ في الأندلس، ثم رحل إلى البلاد العربية والأناضول وألقى عصاه في دمشق، وله كتب كثيرة من أهمها الفتوحات المكية. وله أيضا دواوين بديعة، لأبياتها ظاهر وباطن، ظاهر يتفق مع السنة وباطن يتفق مع تصوفه الفلسفي. وشُغف كثيرون من أهل الشام بأدبه وشعره منهم من يقف به عند ظاهره ومنهم من يتغلغل في أعماقه. وأخذت أشعاره وتعاليمه الصوفية الفلسفية، وبالمثل أشعار السهرودي وأيضا أشعار ابن الحلاج الصوفي المتفلسف القديم تؤثر هي وأشعار التيار الصوفي السني في كثيرين بحيث اصبح للشام تراث صوفي شعري. وبدون ريب أكد هذه النزعة الصوفية في الناس ظهور الطريقة القلندرية التي ظهرت في القرن السابع الهجري مع ما دخلها من انحرافات ذكرناها في الفصل الأول، وأيضا ظهور الطريقتين النقشبندية والبكتاشية لأواخر زمن المماليك. وسنترجم فيما بعد لثلاثة من شعراء الصوفية الذين تمثلوا التيار الصوفي الفلسفي، وهم ابن سوار وعفيف الدين التلمساني وعبد الغني النابلسي، أما ابن عربي فعداده في الأندلسيين، وقد نزل دمشق بأخرة من عمره.

وكان يقترن بنزعتي التصوف والزهد مديح نبوي كثير، وهو قديم منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومديح حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من الشعراء له تنويها بخلقه الكريم ورسالته العظمى وجهاده في سبيل الله وفتوحه. وحين نشطت الحركات الشيعية نشط معها مديحه، إذ انبث كثير منه في مدائحهم لأئمتهم العلويين وفي مراثيهم للحسين على نحو ما نجد عند الصنوبري الذي ترجمنا له في كتاب العصر العباسي الثاني.. ولأبي العلاء في اللزوميات قصيدة في مديحه، وفيها يشيد به وبرسالته النبوية الخالدة قائلاً:

دعاكم إلى خير الأمور محمد ... وليس العوالي في القنا كالسوافل

حداكم على تعظيم من خلق الضُحى ... وشهب الدجى من طالعات وآفل

فصلى عليه الله ما ذر شارق ... ومافت مسكا ذكره في المحافل

وعوالي القنا أو الرماح هي الماضية القاطعة، ويذكر أنه دعا إلى توحيد الله الذي خلق الشمس ما تغمر به الكون من الضياء وخلق النجوم التي تبزغ تارة وتأفل تارة ثانية، فهو مدبر الكون وملكوته. ويدعو الله أن يحفه ببركاته ما طلعت شمس وما عطر ذكره المحافل بمسك لا يضاهيه مسك.

ويحتدم المديح النبوي مع الحروب الصليبية وحروب التتار، إذ أحس الشعراء- بحق- أنها حروب موجهة للإسلام ورسوله الكريم، فأخذوا يشيدون به وينوهون بمعجزاته وسيرته الذكية من مثل قول ابن الساعاتي شاعر صلاح الدين في مدحه نبوية (١):

هو البشير النذير العدل شاهده ... وللشهادة تجريح وتعديل

لولاه لم تك لا شمس ولا قمر ... ولا الفرات وجاراه لا النيل

مرتل الوحي يتوله ويدرسه ... ولم يكن لكلام الله ترتيل

وسيد الرسل حقا لاخفاء به ... وشافع في جميع الناس مقبول

بثت نبوته الأخبار إذ نطقت ... فحدثت عنه توراة وإنجيل

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٤٨/١

ويقول ابن الساعاتي هو البشير النذير الذي أشاع العدل في أمته، ويستلهم القائلين بالحقيقة المحمدية وأن الرسول عليه السلام علة الكون ووجوده، فلولاه لم تك شمس ولا قمر ولا حياة في الأرض ولا أنهار، ويقول إنه أول رسول رتّل الكلام، وإنه لسيد الخلق وشافع أمته يوم القيامة، وبه تحدثت الأخبار في التوراة والإنجيل مبشرة برسالته العظمى. ويقول فتيان الشاغوري من مدحة نبوية مؤملا شفاعته في يوم الحشر متمنيا زيارته (١):

أومل من خير الأنام شفاعة　　بها في نعيم بالجنان أخلد
وددت بأني زرت قبرك رجلا　　وقبلت تربا أنت فيها موسد
ومرغت خدي عند قبرك ضارعا　　بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد
وذاك ضريح يحسد المسك تربه　　وكل شريف القدر لاشك يحسد

وهو يؤمل في شفاعة الرسول بالغفران ودخول الجنان، يوم يطول وقوف الناس في المحشر، ويقول لو استطاع لزار القبر راجلاً وقبّله وعفّر خده بما حوله من التراب ضارعا متوسلاً بأرض حصاها لؤلؤ وزبرجد وإن المسك ليحسد ترابه على ما يحمل من طيب لا يماثله طيب. وللسخاوي على بن محمد شيخ القراء بدمشق المتوفى سنة ٦٤٣ قصائد سبع في المديح النبوي. وفي مدحه نبوية يقول الشاب الظريف بالبقعة مثوى الرسول الكريم (٢):

أرض الأحبة من سفح ومن كثب　　سقالك منهمر الأنواء من كثب (٣)
يا ساكني طيبة الفيحاء هل زمن　　يُدنى المحب لنيل الحب والأرب
أرض مع الله عين الشمس تحرسها　　فإن تغب حرستها أعين الشهب

وهو يدعو لأرض الحبيب المصطفى أن تهطل عليها الأمطار سفوحا وكثبانا من كثب أو قرب لتظل تزهر بالشذى العطر، ويتمنى زمنا يحقق أربه ومنيته من زيارة

---

(١) ديوان فتيان ص ١٠٩
(٢) ديوان الشاب الظريف ص ٤
(٣) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

الجدث الطاهر. ويقول إن عين الشمس تحرسه نهارا وتحرسه أعين النجوم الساطعة ليلا حراسة يراعاها الله جل علاه.

وللشهاب محمود ديوان في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم سقط من يد الزمن واحتفظ كتاب المدائح النبهانية النبوية لإسماعيل النبهاني بطائفة من مدائحه، وفي إحداها يصور الشهاب محمود ساعة وصول ركبه إلى المدينة المنورة حين بدا لهم العقيق في غريبها ولم يلبثوا أن زاروا القبر الزكيّ يقول (١):

وإذا شارفوا العقيق تراءت	من رُباه سنا القباب الزُهر
وتلقاهم بشير التلاقي	بقبولٍ تسرى قبيل الفجر
وشذا الروضة التي أزكى	منبر في الدُنا وأشرف قبر
حبذا ذك من مقامٍ كريم	يُشترى يومه بكل العُمر

وهو يصور فرحة ركبه أو قافلته بقرب لقاء الرسول حين أشفوا على العقيق ورأوا قباب مسجده قبيل الفجر. والقبول أو ريح الصبا العليل تبشرهم بالتلاقي وعطر الروضة النبوية يفوح، وهو يشير إلى الحديث النبوي: " ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة" ويقول إن فرحة المثول أمام القبر الطاهر يُشترى يومها بالعمر كله. ولكمال الدين محمد بن علي الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ للهجرة مدحة نبوية رائعة يقول فيها (٢):

محمد خير خلق الله كلهم	وفاتح الخير ماحي كل إشراك
قد نال مرتبة ما نالها أحد	من أنبياء ذوى فضل وأملاك
يا صاحب الجاه عند الله خالقه	مارد جاهك إلا كلُ أفاك
ها قد قصدتك أشكو بعض ما صنعت	بي الذنوب وهذا ملجأ الشاكي
عليك من ربك الله الصلاة كما	منا عليك السلام الطيب الزاكي

(١) المجموعة النبهانية ١٧٣/٢.

(٢) فوات الوفيات ٤٩٧/٢

والزملكاني يقرر حقيقة كبرى، فمحمد عليه السلام خير خلق الله وما حي الكفر والإشراك وقد نال مرتبة لم ينلها الأنبياء ولا الأملاك أو الملائكة. ويتوسل غليه أن يستغفر له ربه وان يحط عنه أوزاره كما يتبين من أبيات تالية، وقد زاره وحط رحاله في حماه لنوال هذا الأمل المنشود. وتكثر مثل هذه الاستغاثة في المدائح النبوية كما يكثر معها طلب الشفاعة. ويقول مصطفى البابي من مدحة نبوية بديعة (١):

إليك رسول الله قد جاء ضارعا أخو عثرة يرجو الإقالة مذنب

فبابك بابُ الله ما عنه مهرب وطالبه من غير بابك يُحجب

أغثني تداركني أجرني فإنني لقى إن تراخى عنه لطفك يعطب

وأبعد شئ أن تضيق برحبها شفاعتك العظمى بنا فهي أرحب

وهو يضرع إلى الرسول الكريم أن يستغفر له ربه ليقيله ويخلصه من ذنوبه، ويستغيث به لائذا أن يكون شفيعه يوم القيامة، يوم يطول وقوف الناس في المحشر، والجميع يضرعون إلى الله أن يخلصهم وينجيهم من النار، وسعيد من يشفع له الرسول في هذا اليوم، فيفوز برضوان ربه. واللبابي يتوسل (٢):

يا حيّ يا قيوم قد بهر العقول سنا بهائك

إني سألتك بالذي جمع القلوب على ولائك

نور الوجود خلاصة الـ كونين صفوة أنبيائك

إلا نظرت لمستغيث عائذ بك من بلائك

فالطف به فيما جرى في طي علمك من قضائك

والبابي يجأر إلى ربه ضارعا متوسلا برسوله الذي جمع أمته على الولاء له، ويقول إنه نور الوجود، فنوره يشاهد في كل نور: في نور الشمس والقمر والكواكب والنجوم وهو خلاصة الكونين وصفوة الأنبياء والمرسلين، ويتخذه وسيلة إلى ربه

---

(١) الديوان ص ٤ ونفحة الريحانة ٤٣٧/٢

(٢) الديوان ص ٥ ونفحة الريحانة ٤٣٤/٢

وشفيعه، حتى يلطف به في قضائه وما جرى في طي علمه. وحري أن نترجم لنفر من المتصوفة وأحد شعراء الزهد والمديح النبوي وهو أول من نقف عنده.

عبد[١] العزيز الأنصاري

هو شرف الدين الصحاب عبد العزيز بن محمد بن يونس الأوسى الأنصاري، كان أبوه من فقهاء دمشق، وحين عهد بقضائها في عهد صلاح الدين إلى ضياء الدين الشهرزوري سنة ٥٧٢ جعله من نوابه. ودار العام فاستعفى ضياء الدين من القيام على القضاء، ولا نعرف هل ترك والد الشاعر القضاء أو أنه ظل يعمل فيه مع ابن أبي عصرون خليفة ضياء الدين. وأكبر الظن أنه بقي في منصبه مدة، أو لعله عمل في منصب آخر. ويقولون إنه كان يشتغل بالتجارة في سوق الخواصين ولا ندرى هل كان يجمع بين عمله في القضاء وبين التجارة أو كان يزاولها حين يعفي منه. وولد له ابنه عبد العزيز سنة ٥٨٦ وطبيعي أن يُعنى القاضي بتربية ابنه، فأخذ يرعاه حتى حفظ القرآن الكريم ورأى أن يتزود من حلقات الشيوخ بدمشق فدفعه إليها وأكب عبد العزيز على تلك الحلقات ينهل منها، حتى إذا أحس أبوه أنه استوعب ما فيها نزل به بغداد فاستمع بها إلى شيخ المدرسة النظامية، وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره. وسكن الأب حماة وتولى قضاءها لعهد صاحبها السلطان المنصور الأول (٥٨٧- ٦٢٦ هـ) ويظل بها عبد العزيز. وتولى الإمارة السلطان المظفر بن المنصور الأول (٦٢٦- ٦٤٢) فابتسمت الدنيا له إذ اتخذه المظفر وزيره ومستشاره وشاعره، ويتوفى ويخلفه ابنه السلطان المنصور (٦٤٢- ٦٨٣ هـ) وكان صبيا في العاشرة من عمره وربما يكون سكن الشاعر لبعلبك ودمشق الذي ذكره مترجموه في هذا التاريخ. وكان يلمّ بحلب، ونجده سنة ٦٤٧ في صحبة أميرها الناصر يوسف في زيارته لمصر. ويعود إلى حماة وتنعقد صلة وثيقة بينه وبين سلطانها المنصور إلى توفى سنة ٦٦٢ للهجرة.

وكانت تُعقد في هذه البلدان جميعا لعبد العزيز الأنصاري الحلقات لسماع الحديث عنه، وممن سمعه منه الحافظ الدمياطي محدث مصر واليونيني محدث دمشق، ويقول

---

(١) انظر في عبد العزيز الأنصاري وشعره، فوات الوفيات ٥٩٨/١ وذيل مرآة الزمان ٢٣٩/٢ والعبر ٢٦٨/٥ وتذكرة الحفاظ ١٤٤٣/٤ وطبقات الشافعية ٢٥٨/٨ و النجوم الزاهرة ٢١٤/٧ والخزانة للحموي ص ٢٤٩ بي ٣١٤ وديوانه (طبع مجمع اللغة العربية بدمشق) بتحقيق د. عمر موسى.

ابـن تغـري بـري عنـه: " بـرع فـي الفقـه والحـديث والأدب وأفتـى وتقـدم عنـد الملـوك وترسـل عـنهم غيـر مـرة، وكـان شـاعرا بارعـا" وينقـل صـاحب الفـوات عـن الفـدي فـي وصـف شـعره وشـاعريته قولـه: "لا عـرف فـي شـعراء الشـام بعـد سـنة خمسـمائة وقبلهـا مـن نظـم أحسـن منـه ولا أجـزل ولا أفصـح ولا أصـنع ولا أسـرى ولا أكثـر، وإن لـه فـي لـزوم مـا لا يلـزم ديونـا كبيـرا، ومـا رأيـت لـه شـعرا إلا وعلقتـه، لمـا فيـه مـن النكـت والتوريـات الفائقـة والقـوافي المتمنـة والتركيـب العـذب واللفـظ الفصـيح والمعنـى البليـغ" وهـو يمتـاز بجمـال موسـيقاه وعذوبة ألفاظه وحسن جرسها حسنًا بديعًا.

وطبيعـي والأنصـاري شـيخ الشـيوخ الفقيـه المحـدث أن يعنـي فـي شـعره بالمـديح النبـوي والزهـد والـوعظ، ومـن قولـه فـي أول مدحـة نظمهـا للرسـول الكـريم وقـد أنشـدها تجـاه حجرتـه الشريفة:

يا خاتمَ الرُّسْل الكرام وفارجَ الـ ... كُرب العِظام بفعلهِ والمقْولِ

ها قد ورَدنا من ضَرِيحك موردًا ... نُشْفَي به من كل داءٍ مُعْضِلِ

أدعوك للجُلَّى وتلك شفاعةُ ... لم تَرضَ لي أني أخاف وأنت لي

ولقد أتيتك مادحًا لتجيزني ... في الحشر كاساتِ الرَّحيِ السَّلْسَلِ

وهـو يسـتغيث بالرسـول الكـريم صـلى الله عليـه وسـلم خـاتم الرسـل ومفـرِّج الكـرب الـذي ورد علـى جدثـه الطـاهر ومعينـه العـاطر الـذي يشـفي مـن كـل داء عضـال أن يكـون شـفيعًا لـه يـوم الحشـر وأن يتـيح لـه فيـه- حـين يشـتد بالنـاس أوار العطـش ولهيبـه- كاسـات مـن الرحيق الصافي. ويقول في مدحة نبوية ثانية:

ويلايَ من نوميَ المشَرَّدْ ... وآهِ من شَمْلِيَ المبدَّدْ

غُصْنُ نَقًا حَلَّ عَقْد صَبْري ... بِلينِ خَصْرٍ يكاد يُعْقَدْ

فمن رأى ذلك الوشاحَ الـ ... صَّائمَ صلَّى عل محمَّدْ

أشرفُ مَنْ في النهار ناجَى ... وخيرُ مَنْ في الدُّجى تَهجَّدْ

وغيرُ بِدْعٍ لمستجيرٍ ... به إذا نال كلِّ مَقْصِدْ

وموسيقى الأبيات بديعة. وقد تخلص تخلصًا رائعًا من الغزل إلى مديح المصطفى بذكر وشاح صاحبته الصائم كناية عن نحول خصرها مع لينه، فمن رآها- كما يقول- صلَّى على الرسول إعجابًا بها واستحسانًا لها، ومضى يذكر مناجاة الرسول نهارًا وتهجده ليلاً وأن يستجير به ينال كل مأمور ومطلب. وله مدحة عارض بها مدحة كعب بن زهير للرسول مقتبسًا منها الشطور الثانية لقصيدته، فإن لم يقتبس شطرًا اقتبس قافية.

وزهديات الأنصاري كثيرة، وكان يصدر فيها عن زهد حقيقي في متاع الحياة الدنيا. وفي إحداها يقول:

مُلْكُ القناعةِ عزٌّ يُذْهِبُ الّلَّهْ	فمن حَوَى كَنْزه لم يُؤتَ من قِلَّهْ
تبًّا لذي طمعٍ مستعبدٍ ومُنى	لا تستقرُّ على رِيٍّ بلا غُلَّهْ
يسومُ إبلاعَهُ من رِيقهِ بَلَلاً	وليس يَرْوَى ولو أبْلغْتَهُ دِجْلَهْ
فانْقَعْ غَليلَك من نَهْلٍ بلا عَللٍ	واقنع إذا أكلةً أغنتْك عن أكْلَهْ

فالقناعة- في رأيه- عز ما بعده عز، ومن حوى كنزها الذي لا يفنى لم يَشْكُ من قلة، ويقول تبًّا لصاحب طمع يستعبده ومنى لا تروي أبدًا فدائما صاحبها يعاني من غُلَّة العطش وحرارته، ودائمًا يريد أن يبلَّ ريقه، إذ لا يَرْوى أبدًا ولو أبلغته نهر دجلة، فاكتب بأن تنقع حرارة ظمئك من النهل أو الشَّربة الأولى من الماء ولا تطلب العلل أو الشربة الثانية منه. وأقنع بكفاف العيش، وطوبى لمن زهد وقنع وأعرض عن متاع الدنيا الزائل. يقول:

وابْغِ أخرى دائمُ فيـ	ـها نعيمُ وشقاءُ
وتَنصَّلْ من خَطيئا	تٍ لها النارُ جزاءُ
وإذا صحَ لك القو	تُ على الدنيا العَفاءُ
كلُّ ما في هذه الدُّنْـ	ـيا قُصاراهُ الفناءُ
ولأَهْلُ الخُلْدِ في الخُلْـ	ـدِ وللهِ البقاءُ

وهو ينصح الإنسان أن يسلو الدنيا ويطلب الأخرى دار النعيم للأتقياء والشقاء للعصاة، وأن يتوب إلى ربه مستغفرًا من خطيئاته وذنوبه. ويقول له يكفيك من دنياك القوت الكفاف،وإذا حصلت عليه لا تتعلق من الدنيا بشيء فكل ما فيها هالك وفان، والسعادة إنما هي لأهل الجنة و لله البقاء والدوام.

وفي الديوان أشعار كثيرة على طريقه لزوم ما لا يلزم، ومر بنا أن الصفدي قال إن له فيها ديوانًا كبيرًا. وقد عرض له الحموي في خزانته طائفة من توريات وطائفة أخرى من أشعاره وافرة النغم حسنة الجرس والأداء.

محمد[١] بن سوَّار

هو محمد بن سوَّار إسرائيل بن الخَضِر الشيباني الدمشقي المولد والدار والوفاة، ولد سنة ٦٠٣ للهجرة. وتوفى سنة ٦٧٧ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته من الناشئة، واختلف إلى حلقات الشيوخ، ويبدو أنه شُغف بالتصوف منذ أوائل حياته، ونظن ظنا أنه لزم ابن عربي المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ غير أن مترجميه يقولون إنه لزم على بن الحسين الحريري المتصوف المتوفى سنة ٦٤٥ ومما يشهد لقولهم مرثيته له، وهو فيها يبكيه بكاء حارا بمثل قوله:

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جليلُ ذُهِلتْ لديه بصائرٌ وعقولُ

ويعمّ بالخطب كل قطر ويزعم أن الحقائق الصوفية أصبح عليها ذلة وخمول وأن السالكين إلى التصوف غَوِىَ نهجهم وضلوا السبيل وسُدِل الحجاب الإلهي دون أبصار المتصوفة وخُتمت دنان خمر الحب الرباني. وإذا رجعنا إلى الحريري عند من ترجموا له وجدنا فقهاء دمشق يفتون بقتله- كما أفتى فقهاء حلب بقتل الهروردي- لما اشتهر عنه من الإباحة وقذف الأنبياء والفسق وترك الصلاة، مما يجعلنا نظن ظنا أنه يتأثر السهروردي المقتول. ويبدو أن ملازمة ابن سوار للحريري لم تؤد إلى انحرافات، والسبب في ذلك أنه كان متصوفا حقا، إذ يقولون إنه تجَّرد ولبس المرقعات الصوفية ورحل في

---

(١) انظر في محمد بن سوار وشعر، وأخبار، فوات الوفيات ٤٣١/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٢/٧ وشذرات الذهب ٢٥٩/٥ والوافى ١٤٣/٣ وراجع ترجمة على بن الحسين الحريري في الفوات ٨٨/٢ وكذلك ترجمة محمد بن عبد المنعم الخيمي في الفوات ٤٥٨/٢.

البلاد على قدم الفقر والتصوف. ولقي- فيمن لقي- شهاب الدين السهروردي الصوفي السني البغدادي وسمع عليه وأجلسه في ثلاث خلوات. ولقي أيضا ابن الفارض متصوف مصر المشهور، ويذكر الرواة لذلك قصة هي أن ابن سوار حجّ، فرأى ورقة مقاه فيها قصيدة- وكانت لابن الخيمي المتصوف المصري تلميذ ابن الفارض- فادعاها لنفسه، فراجعه ابن الخيمي وعبثا حاول أن يقنعه، فتحا كما إلى ابن الفارض فطلب إلى كل منهما أن ينظم قصيدة على نفس الوزن والروي، وكانت القصيدة بائية، فنظم كل منهما على غرارها قصيدة، فحكم ابن الفارض بأن القصيدة لابن الخيمي.

ولم نصل بين ابن سوار والسهروردي البغدادي لأنه كان سني التصوف وتصوف ابن سوار فلسفي ويتصل مباشرة بتصوف ابن عربي وما فيه من فكرة واحدة الوجود، ولذلك وصلناه به، كما يشهد بذلك شعره من مثل قوله:

أن أمَّ صحبي سَمُرًا أو أراكْ ... فإنما مقصدهم أن أراكْ

وإن ترنَّمْتُ بذكر الحِمَى ... فإنما عَقْدُ ضميري حِماكْ

وإن بكى صَبٌّ حبيبًا فما ... أحسب إلا أنه قد بكَاك

ملأتَ كلَّ الكون عشقا فم ... أعرف قلبا خاليا من هَواك

فصْحبه أن أموا به شجر السمر والأراك فمقصدهم أن يرى ربه محوبه الذي يحلفى كل كان، وهو حين يذكر في غزله الحمى إنما يريد حماه، بل أن كل من بكى حبيبًا إنما يبكيه لأنه يحل في جميع الأشخاص والأشياء، فما يعشق الناس شخصا أو شيء إلا ويعشونه، وكأن كل شيء مرآة له، إذ يتراءى في كل الوجود. ويقول من قصيدة ثانية:

يا مَنْ يشير إليهم المتكَلّمُ ... وإليهمُ يتوجهُ المتظلمُ

وعليهمُ يحلو التأسف والأسرى ... ويلذُّ لوعاتِ الغرام المُغْرَمُ

هذا الوجودُ وإن تعدَّد ظاهراً ... وحياتِكم ما فيه إلا أنتمُ

وإذا نطقتُ ففي صفات جمالكم ... وإذا سألْتُ الكائناتِ فعنكمُ

وإذا سَكِرْتُ فمن مُدامِة حبِّكم ... وبذكركم في سَكْري أترنَّم

وإذا نظمتُ تغزلا في صورةٍ ... فلأجل حُسْنِكمُ المحجَّبِ أنظمُ

أنتم حقيقةُ كلِّ موجودٍ بَدَا ووجودُ هذى الكائنات توهُّمُ

والأبيات صيحة في أنه مؤمن بوحدة الوجود. فالله يحل في الوجود جمعيه، وكل ما فيه من أشخاص وشيء مظاهر له، وهو لذلك أن تحدث ع جميل أو سأل كائنا من الكائنات إنما يسأل الله ويتحدث عن جماله المشاهد في كل جميل. وهو إذا سكر فسكره من خمر الحب الإلهي الذي يترنم به ويشدو آناء الليل وأطراف النهار. وهو إذا تغزل في صورة وأستشعر وجداً إنما يستشعر الوجد الرباني. وإنه لينبثُّ في كل موجود وحدة متصلة بين الله ومخلوقاته. وهى نفس الأفكار التي تلقانا عند ابن عربي، ولذلك تكلم فيه أهل السنة، ورموه بأنه يؤمن بالاتحاد بين الله والموجودات. وعلى هذه الشاكلة قوله:

خَلا منه طرفي وامْتلا منه خاطري فطرفي له شاكٍ وقلبَ شاكرُ

ولو أنني أنصفتُ لم تَشْكُ مقلتي بِعادا ودارتُ الوجود مظاهرُ

فالله يمتزج بروحه ولا يراه، لذلك طرفه يشكو وقلبه يشكر، ويقول إنه كان جديرا بمقتله أن لا تشكو بعاد الحبيب لأن دارات الوجود جميعا من حوله مظاهره، فكيف لا تبصره وهو متحد بكل الكائنات مشاهَدٌ في كل الأشياء. وكان للمتصوفة لأيامه ليال يحيونها بالدفوف والذكر إنشاد الشعر عليه إلى السَّحَر، ويُرْوَى أنه حضر مع نجم الدين بن الحكم الحموي ليلة من تلك الليالي فغنى المغنى من شعره:

وما أنت غيُر لكَوْنِ بل أنت عينهُ ويفهمُ هذا السرَّ مَنْ هو ذائقُ

فقال ابن الحكم: كفر، فقال ابن سوار: لا، ما كفر، لكن أنت ما تفهم، وتشَّوش المجلس. وفى البيت وفى بقية الشعر ما يدل على ابن سوار يريد أن يقول: على أساس ما يزعمه من فكرة وحدة الوجود- أن الله هو الكون أو الوجود بجميع ما فيه، والفكرة والفكر بأساسها- كما يرفضها ابن الحكم- يرفضها- كما ذكرنا ذلك أيضا- أهل السنة وأصحاب التصوف السني.

عفيف[١] الدين التلمساني

هو سليمان بن على بن عبد الله الكوفي التلمساني، وتدل نسبته إلى تلمان في الجزائر على أنه مغربي الأصل، كما تدل نسبته إلى الكوفة على أن بعض آبائه نزل الكوفة واستوطنها فيما يبدو، نعرف شيئاً عن نشأته، ويبدو أنه نشأ بدمشق وأنه اختلف إلى حلقات علمائها يأخذ كل ما عندهم، ولعل ذلك ما جعله يؤلف في كل علم كما يقول صاحب الوفيات. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وعُرف فضله وأدبه، ويقول مترجموه إنه خدم بعدة جهات يقصدون عدة مناصب، وأغلب الظن أنها جمعا كانت في دمشق وفى دواوينها وخاصة في بيت المال. وأخذ مبكرا يتصل بالمتصوفة ولزم صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي، ويبدو أنه أعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رُزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقدرت ترجمته بين شعراء الغزل. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي، ويبدو أنه أعتنق مذهبه في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رزق في أثنائها بابنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقدرت ترجمته بين شعراء الغزل. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي ابن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن بوحدة الوجود، فأكدها في نفس عفيف الدين. وعاد إلى دمشق، وتارة كان يعمل بها في الدواوين، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي، ومذهبه في وحدة الوجود على يده. ونزل معه في العقد السادس من القرن السابع خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، ومكثا بها مدة، رزُق في أثنائها بأنه الشاب الظريف سنة ٦٦٦ وقد مرت ترجمته بين شعراء الغزال. ولقي في القاهرة مع أستاذه صدر الدين القونوي أبن سبعين الأندلسي، وكان على شاكلة القونوي وابن عربي يؤمن وحدة الوجود، فأكده في نفس عفيف الدين. وعاد إلى دمشق، وتارة كان يعمل بها في

---

(١) انظر في عفيف الدين وأشعار، وأخبار، فوات الوفيات ٣٦٣/١ وراجع فيه ترجمة ابن الخيمى ٤٦٣/٢ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٦/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٩/٨ والشذارت ٤١٢/٥ وديوان الحقائق ومجموع الرقائق لعبد الغنى النابلسى ص ٢٨٩، ٣٢٦. وديوان عفيف الدين طبع قديما بالقاهرة وبيروت.

الدواوين، وتارة ثانية كان يفرغ للتصوف داعيا إلى طريقة ابن عربي، ومذهبه في وحدة الوجود. وترك دمشق مدة إلى الأناضول، أو كما كانت تسمى حينئذ بلاد الروم، وعمل فيها أربعين خلوة صوفية، يخرج من واحدة ويدخل في أخرى. ويقول مترجموه إنه كان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة، ولعلة لذلك لم يتعقبه الفقهاء، وظل موزعا بين عمله في دواوين دمشق وعمله في ميدان التصوف حتى توفى سنة ٦٩٠ للهجرة.

وكان تصوف عفيف الدين- كما ذكرنا آنفا- تصوفا فلسفيا على طريقة ابن عربي، مما جعله يُعْنى بشرح أعقد كتبه في التصوف ونقصد كتابه: "فصوص الحكم" وفى مكتبة ولى الدين بإستانول مخطوطة منه. وأشعاره الصوفية أشعار غزلية حسية على طريقة ابن عربي في ديوانه "ترجمان الأشواق" من مثل قوله في قصيدته التي نظمها على غرار قصيدة ابن الخيمي المذكورة آنفا في ترجمة ابن سوار:

لولا الحِمَى وظباءٌ بالحِمَى عُرُبُ	ما كان في البارق النجدي لي أرَبُ
وفى رياض بيوت الحي من إضَمٍ	وَرْد جَنِيٌّ ومن أكمامه النُّقَبُ
لا تقدر الحُجْبُ أن تُخْفى محاسنَه	وإنما في سَناه الحجْبُ تنْحَجبُ
يا سالما في الهوى مما أكابدُه	رفقًا بأحشاءِ صَبٍّ شَفَّه الوَصَبُ
هل السلامةُ إلا أن أموتَ بهم	وَجْدًا وإلا فبُقْياىَ هي العطَبُ

وعفيف الدين يستشعر وجد المحبين إزاء محبوبة الرباني، ويتحدث عنه حديثا رمزياً، فلولا حماه ما كان له أمل وراء البارق النجدي، ولا كان له ولوع بورد الخدود في رياض بيوت الحي من إضم. ويتصور كأن الأقنعة أو الحجب التي تُسْدَلُ على تلك الخدود هي أكمام الورود، ويقول أن الحجب لا تستطيع أن تخفى محاسنه إذ تذوب في سناه وضيائه المشرق. ويذكر أن أحشاءه تستشعر أوجاع حبه وأن سلامته إنما هي في أن يموت في حب ربه ودا وهيامًا، وإلا فبقاؤه ملاكه، ويقول أن السكارى يفيقون من سكرهم، وهو لا يفيق مما شرب من دَنّ هذا الحب الإلهي:

لا تحسبوا أنني عن حُبكم سالي	وحقكم لم يزل حالي بكم حالي
با ساكنين فؤادي وهو منزلكم	ل عشتُ يوما أراه منكمُ خالي

أنتم بقلبي أَدْنى من جَوَانحه | حَقًّا على رغم حُسَّادي وعُذالي
أوضحتمُ لمحيكم طريقكم | حاشاكمُ تهجروني عد إيصال

وفى البيت الأول تورية واضحة في كلمة "حالي الثانية" إذ ليس المراد معناه الظاهر كما في "حالي السابقة" وإنما المراد أن حاله لا يزال حبه لربه حالياً أو مزدانا بحلي بديعة. ويقول أن محبوبه الإلهي حال بفؤاده وأنه أدنى لقلبه من جوانحه وما يحيط بها من صدره، وكأنما يشير إشارة إلى فكرة الاتحاد بالذات الإلهية التي كان يؤمن بها أبن عربي. ويتضرع إلى محبوبه الرباني أن لا يهجره بعد وصله ويقول:

يا أُصَيْحابي بذى سَلَمٍ | مَنْ أُيْحابى وما السَلمُ
أنا عنى اليوم في شُغُلٍ | فاذكروني أن نسيتكمُ
وأشيعوا في الحِمضى خَبَرى | وأذيعوا السرَّ واكْتَتِمُوا
لا يراني الحِبُّ مُنْثَنِيًا | بعد ما لاحتْ لي الخَيِمُ
كنتُ قبل اليوم في حُلُمٍ | وتقضَّى ذلك الحُلُمُ
فزماني كله طَرَبٌ | دونه الأوتار والنَّعَمُ

إنه على وشك أن يتحقق أمله في الوصول إلى محبوبه الإلهي. وهو لذلك يخاطب أصحابه بذي سلم أحد المواضع النجدية التي يذكرها أصحاب الغزل العذري. ويرجع إلى نفسه وقد لاحت له خيام محبوبة، كما يقول، فيعلن أنه في شغل عن أصحابه وعن السلم، وأنه لم يتثنى عن طريقة إلى محبوبة الذي طالما حلم بوصله ولقائه، وقد انقضى عهد الحلم. وهو لذلك فرح مبتهج، وزمانه من حوله كله طرب طربا يفوق طرب الأوتار والأنغمام واللحون. ولما في هذه القطعة وسابقتها من وجد صوفى مندلع خَمَّسها عبد الغنى النابلسي مع أبيات متصلة بهما لم ننشدها، وهو وجد كان لا يزال يملأ قلب عفيف الدين غبطة وابتهاجا.

عبد الغنى[١] النابلسي

هو عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي الدمشقي الحنفي، كان أبوه من فقها دمشق الأحناف، وكانت له حلقة يجمعها الأموي. ودرس فيها بالمدرسة القيمرية وبجامع السلطان سليم، ورحل إلى حلب والقسطنطينية والقاهرة واستقر بدمشق. وولدا فه فيها ابنه عبد الغنى سنة ١٠٥٠ للهجة، وعنُى بتعليمه بعد حفظه للقرآن الريم، قلقنه المذهب الحنفي، ودفعه إلى حلقات العلماء في دمشق يأخذ عنهم العربية والفقه والحديث النبوي والتفسير، وأكبَّ على كتب الصوفية يقرؤها وسرعان ما نضج علما وهو لا يزال في العشرني من عمره فأخذ يقرأ الدروش ويلقيها على طلابه، مما جعله يكثر من التأليف والتصنيف حتى لتبلغ مصنفاته ٢٢٣ مصنفا، وقد استغرقت في كتاب سلك الدرر للمرادي سبع صفحات. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، وأخذ يعني بالتصوف، فانتظم في الطريقة القادرية ثم في الطريقة النقشبندية، وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية عنوانها: مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية، ثم جذبه إليه مذهب ابن عرب الصوفي الفلسفي، وكأنما عاش به وفيه وله، إذ يصدر عنه بوضوح في ديوانه الصوفي. ديوان الحقائق ومجموعة الرقائق، وهو فيه يجاهر بأنه يؤمن بوحدة الوجود التي آمن بها من قلبه إمامه ابن عربي، ويردد دائما: ليس في الكون سواه، فلا موجود إلا به، وما الكائنات إلى صورة له، يتجلى فيها بأسمائه وصفاته، يقول:

إنه اللهُ وجودُ واحدُ ... حكمةُ فينا حرامُ وحلالُ

وهو حقٌّ وسواهُ باطلُ ... قال في القرآن والسبع الطِّوالْ

أينما أنتم تولوا ثَمَّ وَجْـ ... ـهُ الإلهِ الحقِّ محمودِ الفعالْ

وهو يستدل على صحة القول بنظرية وحدة الوجود بقوله تعالى في سورة البقرة: " وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ والآية إنما تشير إلى أن أي مكان من

---

(١) انظر في عبد الغنى النابلسى وأشعار، وأخبار، كتاب سلك الدرر ٥٣٠/٣ ومفحة الريحانة ١٣٧/٢ وتاريخ الجبرتى ١٥٤/١ وله ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صرح المواجيد الإلهية والتجليات الرانية والفتوحات الأقدسية. طبع قديما بمصر بالمطبعة الاشرفية في ٤٧١ صفحة من القطع المتوسط.

الشـرق والغـرب يـأمرهم الله باتخـاذه قلبـه تكـون هنـاك جهتـه التـي أمـرهم بالاتجـاه إليهـا لا أنـه موجـود فيهـا حـالٌ بهـا ومتحـد معهـا كمـا يـذب الناسـب وان عربـي زاعمـين أن ذاتـه هـي ذات جميــع الكائنــات، تعــالى الله عــن ذلــك علــوا كبيــراً. ويقــول النابلســي متحــدثا بلســان الذات العلية:

ألا أن ذاتي ذاتُ كلَّ الخلائقِ	وسَلْ عنه ذا علمٍ كريمِ الخلائقِ
ولا صفةٌ إلا ومنِّى تعيَّنتْ	لموصوفها إذ كنت أصلَ الدقائق
أنا الجوهُر السَّارِي بغير سِرايةٍ	ألوحُ وأخفى في جميع الحقائق
أنا النورُ نورُ العَيْن منى تكوَّنَتْ	عيون البَرايا من مَشوقٍ وشائق

فــالله جــوهر الوجــود، يلــوح ويخفــى ولا ســواه، إذ كــل مــا فــي الكــون مظــاهر لــه، يصـبغها بوجـوده. ويحـاول النابلسـي جاهـداً أن يفـرِّق بـين القـول بـالحلول وأن الله يحـلُّ فـي جميـع الموجـودات وبـين مـا يزعمـه وهـو ابـن عربـي مـن وحـدة الوجـود، وإنهـا لتبلـغ بـه أن يقول في مخاطبة ربه، "ها أنت أنا وليس في الحضرة ثاني" أو كما يقول:

أثنان نحن وفى الحقيقة واحدٌ	لكنْ أنا الأدنى وأنت الأُدنى وأنت الأكُبرُ

فهـو والله واحـد بـل جميـع الكائنـات والله- جـل جلالـه- واحـد. وهـى نفسـها فكـرة واحـدة الوجـود التـي يحـاول جاهـدا الخلاصـة منهـا ولأخـلاص فهـو غـارق فيهـا. وهـو بـذلك مـن أصــاب التصـوف الفلسـفي علـى طريقـة ابـن عربـي. ولهـه شـرح علـى ديـوان ابـن الفـارض حــاول أن يحيلــه رمــوزا خالصــة علــى نحــو مــا نجــد فــي شــرحه الأول بيــت فــي القصــيدة البائية بالديوان.

سائقَ الأئمانِ يَطْوى البِيدَ طَىَّ	مُنْعِمًا عَرِّجْ على كُثْبان طَىّْ

يقــول: "ســائق الأظعــان هــو الله تعــالى، والأظعــان: النــاس وكثبــان طــىّ كنايــة عــن المقامـات المحمديـة التـي عـدها كرمـال الكثيـب، فكأنـه يلـتمس مـن الله تعـالى أن يوصِّـله- كمـا يوصِّـل جميـع المـؤمنين- إليهـا". وابـن الفـارض لـم يقصـد إلـى شـيء مـن هـذا كلـه، إنمـا خاطـب سـائق الأظعـان المتجـه إلـى منـازل طـى علـى حـافتي نجـد والحجـاز ليتمهَّـل قلـيلا حتـى يحيِّـى مـن يمـر بهـم فـي طريقـة إلـى الحجـاز معبـرا بـذلك عـن حنينـه إليـه. وطبيعـي

وهـو قـد قـرأ ابـن الفـارض وابـن عربـي وتمثـل كثيـرا مـن اشـعرا المتصـوفة مخمسـا لهـا ومشـطرا كمـا يتضـح فـي ديوانـه الصـفوي أن نـراه تـارة يتغـزل فـي بثينـة وعلـوة وسـلمى وزينـب وسـعاد، وهـى كلهـا رمـوز للـذات الرانيـة، وتـارة ثانيـة يصـف الخمـر ونسـاقيها وكأسـها وشـرابها وحبابهـا ومـا تحـدث فـي روحـه مـن نشـوة وفـى عقلـه مـن شـطح. ونـراه يهـاجم علـم الكـلام والمتكلمـين إذ يـدعون إلـى ضـرورة العلـم بـالله عـن طريـق النظـر العقلـي الفلسـفي لا كمـا يـؤمن المتصـوفة بـأن هـذا العلـم إنمـا يسـتمد مـن القلـب، وشـتان بـين علـم العقـل والفلسـفة وعلـم المحبـة القلبيـة. ولـه قصـيدة بديعـة فـي الاسـتغفار مـن ذنوبـه وخطاياه امتـدت إلـى ٩٢ بيتـا تلاهـا بالصـلاة علـى الرسـول الكـريم وآلـه وأصـحابه والتـابعين وقصـيدة ثانيـة توسـل فيهـا بأسـماء الله الحسـنى أن يـدفع عنـه كـل شـر ويسـبغ ليـه كـل خيـر، وختمهـا أيضـا بالصـلاة علـى رسـول الله وآلـه وأصـحابه، ولـه فـي الرسـول غيـر قصـيدة نوبيـة وغيـر موشـح وقد افتتح موشحا له بقوله:

نورُ طهَ المصطفى منه جميعُ الكائناتِ وبه كان الترقي في جميع الدَّرجاتِ

ونحـسُّ فـي الموشـح إيمانـه بفكـرة الحقيقـة المحمديـة السـارية فـي الكـون باسـره التـي تحفـظ عليـه كيانـه وتصـوف وجـوده، فكـل وجـود مسـتعار مـن وجـوده وكـل نـور مسـتمد مـن نـوره. وفـى الـديوان موشـحات وديوبيتـات أو رباعيـات كثيـرة، وتكثـر مثلهـا المـوالي العاميـة، وفى الديوان أيضا منظومة صوفية من وزن "كان وكان" العامي.

٦

شعراء شعبيون

لا نقصد بشعبية الشعراء في الشام أنهم نشأوا في بياتها الشعبية من سلاسلة عامتها، فداما جمهور الشعراء في كل بلد عربي انحدروا من أسر شعبية ولم ينحدروا من اسر أرستقراطية، وإذا استثنينا أبا فراس بعض أفراد أسرته الحمدانية ممن أنشد أشعراهم الثعالبي وأيضا بهرام شاه الأيوبي صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ لهجرة ونفرّا من أفراد أسرته ممن ترجم لهم العماد في خريدته بقسم الشام ومن جاء بعدهم مثل الملك الاشرف صاحب "حصن كيفا" حفيد الملك العادل أخي صلاح الدين المتوفى سنة ٦٣٦ إذا استثنينا هؤلاء الأمراء وهم قلة بجانب الكثرة الغامرة من الشعراء وجدنا مَنْ عداهم من أبناء الشعب. وكان بنيهم غير شاعر يحترف عملا يكفل له عيشه، مل يحي الخباز الحموي الذي أنشد له صاحب الخزانة طرائف كثيرة من توریاته، وبالمثل صنع مع شمس الدين محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٨١١ واشتهر باسم صنته. شمس الدين المزين: لا نريد إذن بشعبية الشعراء التالين نشأتهم في أوساطهم شعبية، وإنما نريد أنهم أتخذوا لغة الشعب العامية لسانا لهم في أشعارهم.

وكانت أخذت تشيع في الشعر لهذا العصر فنون شعرية عامية هي: الزجل والمواليا، والقوما والكان وكان، ومعروف أن الزجل نشا في الأندلس أولا عند ابن قزمان وصحه في القرن الخامس ثم شاعر في البلاد العربية. أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولا بالعراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع. وربما كان الزجل نشا في الأندلس أولاً عند ابن قزمان وصحبه في القرن الخام ثم شاعر في البلد العربية. أما المواليا والقوما والكان وكان فنشأت أولاً العراق ثم أخذت تشيع في البلاد العربية منذ القرن السابع. وربما كان الزجل أكثرا شيوعا في الشام يدلّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد صفى الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة في كتابه: "العاطل الحالي" ينّوه بشيوع الزجل لزمنه هناك، ويقول إنه لقي من أعلامه بدمشق شاب الدين أحمد الأمشاطي إمام هذا الفن الشعبي بها كما لقي بحب رواة ثقة من أكبر رواته هو ابن الضرير الشيخ الصالح إمام الفردوس، وكان قد جلب لنفسه نسخة وثيقة مقابلة

على الأصل من ديواني الزجالين الأندلسيين الكبيرين: ابن قزمان ومدغلّيس حُملت إليه من المدرسة الأشرفية بدمشق. ويذكر صفى الدين أنه كان قد حصل على الديوانين في زيارته لمصر (٧٢٣- ٧٢٦هت) غير أنهما كانا بخط مغربي تعسر قراءة بعضه، فصحح الديوانين بمقابلة نسخة ابن الضرير ومراجعته، وأجاز له بخطة ما نقله عن نسخته، وعرفه بمشايخ الزجل في حلب. ومن أعلامه البارعين حينئذ بحماة علاء الدين بن مقاتل، وسنترجم له عما قليل. ولعلنا لا نعجب بعد أن رأينا إقبال أهل الشام على قراءة ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرا بمخطوطة أزجال ابن قزمان ورواية أزجاله أن تكون هي القطر الوحيد الذي احتفظ إلى عصرنا بمخطوطة أزجال ابن قزمان الوحيد التي عثر عليها جنز برج سنة ١٨٩٦ ونشرها بطريقة الزنكغراف. ولعل من الطريق أن نعرف أن.. فقيها محدثا كبيرا هو شمس الدين بن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة ألف شرحا على بردة البوصيري باسم رقم البردة، استشهد فيه بشعر أهل زمنه فيما عرض له من أنواع البديع وأيضاً استشهد بطائفة من محاسن أزجالهم (١)، وفى دار الكتب المصرية مخطوطة من هذا الشرح. وهو اعتراف قوى بالزجل وصلاحيته ليكون ماة لتعليم البلاغة والتطبيق على محسناتها المختلفة.

وكانت المواليا شائعة أيضا. وإن لم يقصر بعض الشعراء نفسه على النظم فيها، وكأنما كان الشعراء يضيفونها إلى شعرهم الفصيح استطرافا، وقلما تُصَارع صياغ صياغة فصيحة، إذ تَطَّرد فيها العامة، ومما يلقانا من طرائفها قول جوبان بن مسعود الدمشقي المتوفى في حدود سنة ٦٨٠ للهجرة (٢):

أفارقُه وأول إني قد أتْسلّيتْ وريحْت قلبى وزال الهم وأتخَلّيتْ

وأذكر مساويه في حقي إذا ولّيتْ وإذا رجعْ نِسيتِ الكلّ وأتخَلّيت

والتورية واضحة في كلمة "وأتخلّيت" المررة قافيةً للبيتين، والأولى من التخلّي بمعنى أنه أصبح خالياً من الهم والغم، والثانية كلمة عامية من الخلل، تقول العمة

(١) انظر خزانة الأدب للحموى ص٦، ١٧٦.

(٢) فوات الوفيات ٢١٨/١.

أصابه خل واختل عقله. وريد أنه إذا لقي صاحبته أصابه ذهول، فنسى كل ما كان فيه من فكر فيها وسلوى عنها وُيْعد عن الهم.

ونلتقي بمعاصره عز الدين بن السويدي المتوفى سنة ٩٠ وهو من سلالة سعد بن معاذ الأوسى سيد قوه الصحابى الجليل. وكان شيخ الأطباء بدمشق، وكان- كما يقول بعض من ترجموا له- من أسرع الناس بديهة في قول الشعر وأحسنهم إنشادا، وله مواليا (١):

البدر والسَّعد ذا شِبْهك ذا نَجْمك والقدّ واللَّحْظ ذا رمحك وذا سَهْمك

والبغض والحب ذا قِسمى وذا قِسْمك والمسك والحسن ذا خالكْ وذا عَمك

فصاحبته تشبه البدر وجمها أو حظها السعد، وقدها مستو ممشوق مثل الرمح ولحظها فاتك قتل مثل السهم، والبغض قسمها وتصيبها والحب قسمه ونيبه، والمسك خال الحسن على وجنتيها والحسن يعم كل أعضائها وفى كلمة "عمّكَ" تورية واضحة. وله مواليا أخرى فكهة:

أذى قايله لاختها والقصد تُسمعنا ما النحو؟ قالت لها: نَحْنا بأجمعنا

الرفع والنصب نا وأنتي ومن معنا للجر، والزوج حرف جاء للمعنى

والدعاية للنحو والنحاة واضحة، وكلمة نحنا هي نحن بالفصحى. ونظَم اصحا المواليا في جميع أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وخمر وطبيعة، واستغَّلها المتصوفة فنظموا مواليات كثيرة. ونلتقى في ديوان عبد الغنى النابلسى بنحو ثمانين مواليا نكتفى منها بقوله(٢):

الباطن السابق الظاهر هو المسبوق والكل واحد فكن أعلى من العَيَّوق

وأخرج عن الكل أنت الكل يا معتوق أما الجميع هو الخالق أو المخلوق

فليس في الكون إلا وجود واحد هو وجود الله المتمثل في جميع مخلوقاته، أو بعبارة أخرى هي وحدة وجود تغمر الكون كله.

---

(١) راجع في هذه المواليا وتاليتها المنهل الصافى لابن تَغرى بردى ١٢٧/١.

(٢) ديوان الحقائق للنابلسى ص٢٦٨.

ومعروف أن القوما اخترعها المغنون والمنشدون ببغداد لإيقاظ الناس كى يتناولوا سحورهم استعداد للصوم، وكانوا يختتمون كل بيتين منها أو دور بكلمة "قوما للسحور" ومن هنا أخذت أسمها وشاعت في البلدان العربية. أما الكان وكان فقد اخترع البغداديون وزنه لنظم الحكايات والخرافات وأحداث التاريخ، ثم اتسعوا به فنظموا فيه المواعظ والزهيدات والحكم كما مر بنا في قسم مصر. ولابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ منظومة[١] منه صور فيها أحداث وباء الطاعون الذي أُمتحنت به الشام ومصر سنة وفاته. وفى ديوان عبد الغنى النابلسى منظومة صوفية منه في عشرين[٢] بيتا تصور عقيدته في وحدة الوجود. وحري بنا أن نتحدث بكلمة مجملة عن أبى العلاء بن مقاتل الزجال.

أبو[٣] العلاء بن مقاتل

هو على بن مقاتل الحموي ولد سنة ٦٧٤ بحماة، ويقول ابن حجر إنه "تعانى الأدب فتعلم الشعر قليلان وغلب عليه نظم الأزجال فاشتهر بها، وأزجاله في ديوان مفرد في مجلدين.. وكان هذا الفن قد انتهى إليه في زمنه.. كانت وفاته في أوائل سنة ٧٦١" ويذكر ابن حجر أن له زجلا مشورا في الملك المؤيد صاح حماة (٧١٠- ٧٣٢) أنشده إياه وعنده ابن نباته والصفي الحلي. وكان الفي قد نزل حماة ومدح المؤيد وانه ألافضل في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث من القرن الثامن. وشيد به أبن حجة الحموي في خزانته قائلاً: "وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل إذا ذكر الزجل كان ابن بَجْدته وأبا عُذرته، ومن سُلِّمت إليه مقاليد هذا الفن.. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي نبذة من غرر أزجاله في تذكرته وتاريخه تغنى عن الإكثار في ترجمته". وينشد الحموي زجله المشهور آنف الذكر وهو يستهله على هذا النمط:

قلبى يحب تيَّاه ليس يعشق إلا إياه فازْ من وقف وحيَّاه يَرْصد على مُحيَّاه

بَدْر السَّما لو يطبع من رام وصالُو يعْطُبْ

---

(١) تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردى ٣٠٢/٢.

(٢) ديوان الحقائق للنابلسي ص٣٥٦.

(٣) انظر في أبى العلاء بن مقاتل وأزجاله خزانة الأدب للحموى ص ٤٧، ٥٠، ١٧٦ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامن لابن حجر ٢٠٨/٣ وأنشد النواجى له في كتابه عقود اللآل ستة أرجال (انظر الفهرس).

صغيّر يحيّر في أمرو غزال قهر بِسُمْرُو ... ليث الهوى ونمرو فاعجبْ لصغرعمرو

ريم ابن عشرٍ وأربع ... أرْدَى الأُسود وأرْعب

أذكر نهار تبعتو وروحى كنت بعت ... وخَيَّب ما فيه طمعتو فقال وقد سمعتو

أرجع ولالى تتبع ... أخشى عليك لتتعب

كم قدموا وخلفوا مشيت مطيع لحلفوا ... ورُمْت لَثْم كَفُّو قال دَعْ مُناك وكُفُّو

فإنّ لثم إصْبَعْ ... من الثريَّا أصعب

وبمجرد أن نسمح هذا الصوت نعرف أن صاحبه زجال مبدع لقدرته على اختيار الألفاظ بحيث يعانق بعضها بعضا منذ الدور الأول "فتيَّاه" تجذب إياه و"حيّاه" تجذب محياه، وبالمثل "يطبع" في القفل تجذب يعطب. وكأننا في مرقص للألفاظ وبذلك يتسق النغم في الزجل اتساقاً بديعًا، وكأنه عطر للآذان تستروحه مع روعة التصاوير وخفتها ورشاقتها، فصاحبته بدر في السماء لاتصل إليه الأيدى، وهى غزال تهر بعينيها الكحلتين أو السمراوين.. مع صغرها الليوثَ والنمور. وتهلكها وترعبها رعبا. ونصحته أن لا يتبعها، فأمله فيها سراب كاذب. ويحاول لم كفها أو أنملا من أناملها فتقول له الثريا وأخواتها من نجوم السماء أقرب لك. وهى صنعة زجية رائعة منتهى الروعة. وقد تلاعب بالجناس المقلوب في ألافعال تلاعباً يدل على مبلغ مهارته، فيطبع تقابلها يعطب، وأربع تقابلها أعب، وتتبع تقابلها تتعب وإصبع تقابلها اصعب. وبذلك كله يتحول الزجل باللغة اليومية العادية التي لا تحتوى فنا إلى لغة زجلية شجية النغم كأنها تغريد عندليب مع ما يحملّل العندليب أنغامه من تلاوين الصور والأخيلة، وبحق يقول صاحب الخزانة عن هذا الزجل: "سارت به الركبان". وأنشد له صاحب الخزانة زجلين آخرين بديعين.